بكر ابو بكر



نصوص

برق مقیم

برق مقيم

اتكاءات (نصوص نثرية)

تأليف : بكر أبوبكر

الطبعة الأولى ٢٠٠٤

حقوق الطبع والنشر محفوظة

اتحاد الكتاب الفلسطينيين –القدس .

لوحة الغلاف : الفنان حسني رضوان .

جميع الحقوق محفوظة. لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه ، أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات ، أو نقله بأي شكل من الأشكال دون إذن مسبق من الناشر .

All rights reserved . No part of this book may be reproduced , stored in a retrieval system or transmitted in any form or by any means without prior permission in writing of the publisher .

بكر أبوبكر

برق مقيم

اتكاءات (نصوص نثرية)

منشورات اتحاد الكتاب الفلسطينيين - القدس

كلمة

يأبى الاحتلال إلا أن يتدخل في كل صغيرة وكبيرة من الشأن اليومي الفلسطيني معاشا وفكرا ، هواء وفضاء ، ونموذج هذه الاتكاءات أو النصوص النثرية خير دليل على ذلك . إذ أن اقتحام قوات الاحتلال الصهيوني لمقر التوجيه السياسي والوطني حيث أعمل في مدينة البيرة لأكثر من مرة ، وسرقته واتلافه المتعمد للعديد من الوثائق وأقراص الحاسوب من المقر العام طال هذه المجموعة ، كما طال المقدمة التي نعتز بها للأديب والشاعر العربي الكبير المتوكل طه . وإن كنا استطعنا استجماع ما تيسر من المجموعة إلا أن كلمة الأخ المتوكل طه المفترض وجودها على الغلاف الأخير ظلت من الثمين الذي فقدناه واستصعبنا إعادة طلبه. فكل الشكر لمن ساهموا في تنسيق أو نقد هذه المجموعة وعلى رأسهم الشعراء الكبار المتوكل طه ورمحي محمود وشهاب محمد ، ولكل الذين ساهموا في التنسيق والمراجعة والتدقيق وإثراء الأفكار خاصة الأخ علي أبو ريدة والأخت نجوى عودة ، بأمل أن نطوع المطر إنسانا ونحتفظ بالبرق المقيم .

بكر أبوبكر

الجزء الأول

شهداء الركعة الأخيرة في القدس .

قبل انتهاء الركعة الأخيرة من صلاة الجمعة في المسجد الأقصى في شهر المذابح والانبثاق، شهر الحريق والانبجاس ، في أيلول الانفجار والأمل

رفع المصلون رؤوسهم مرددين الله أكبر فكانت كلمة السر

قالوا الله أكبر فانطلقت رصاصات الجبن والحقد في كل صوب

كان بها (شارون) يستعيد ماضيه الإرهابي العريق

هل يتخلى غاصب مثله عن سود صنائعه في قبية وضد الأسرى المصريين ؟

وهل يتخلى من على الحقد قد جُبل ، عن خزيه الدموي في صبرا وشاتيلا ؟

بالطبع لا، فانطلقت إشارة النار من عينيه ، اقتلوهم اليوم أو غدا اقتلوهم .

نهض هيثم اسكافي من حي الثوري بالقدس وختم صلاته وركض ومازالت القوات الخاصة الاحتلالية تطلق النار

باتجاه رؤوس المصلين مباشرة

سلم محمد فرج من المالحة في القدس خاتما صلاته بسرعة وصرخ

أطلقوا النار ، فأنتم لا تحيون دون حقد ولا تعيشون دون قتل

أطلقوا النار ما أظنكم إلا النازيين الجدد ينتعشون لمرأى الدم

أطلقوا الرصاص فالحقد فيكم لا يستكين ، والتعصب شراب تتجرعونه أطفالا وبالغين

ختم بلال عفانة من أبو ديس القدس صلاته وصاح في الجنود المسربلين بالدروع

وهل بغير النار دستم جسد الأرض الطهور

وهل بغير الرصاص كسرتم أضلع الشعب المهيب

لم يكملا الركعة الأخيرة من صلاتهما محمد فراح من أم الفحم وأسامة جدة من البلدة القديمة في القدس .

استأذنا الله وقالا السلام عليكم يمينا ثم السلام عليكم شمالا

وصرخا في المحتلين المشرنقين بالأسلحة والعمى

أطلقوا النار فنحن قوم نحيا بالقتل ولا نموت

أطلقوا النار وموتوا بغيظكم في دنيا الفناء

اضغطوا على زناد اللؤم والخسة فنحن من سنتأبد عيشا

كلكم (غولدشتاين) جزار الحرم الإبراهيمي ، وكلكم الإرهابي النافق (مئير كهانا)

لا تنظروا إلى الخلف خوف حجارتنا السجيل فكلكم (رحبعام زئيفي)
لا تختلفون ! لستم من هؤلاء سوى نماذج تستنسخ عشرات ثم مئات ثم تنشطر أكثر فأكثر

سقط الشهيد الأول فضحك ومد يده وسقط الثاني فضحك ومد يده وسقط الخامس ثم نزار ،كل يمد يده لرفيقه يشكلون سربا من السنونو

منطلقا بخفة وفرح نحو رياحين الفردوس وأزاهير الجنة

الحق بي يا أخي وتعال نعش الأبدية دفاعا عن شرف أمة مستباحة من الماء إلى الماء .

الحق بي يا أخي ودع أمة الاسترخاء والدعة تلهو وترقص وتتلوى وتنتحر

دعهم يطلون علينا بأعينهم المنتفخة وبطونهم المتفجرة من خلف شاشات الافتراضي

دعهم يحملقون فينا فيلما سينمائيا !

واصعد معي دونهم إلى عليين فوق رؤوسهم فوق وجوههم فوق عيونهم

الحق بي يا أخي فما عند ربك خير وأبقي ، وما عند العبيد ماض وزائل

كان الشهداء الخمسة يسقطون ، فتنمو فيهم أجنحة ترفعهم فوق الهامات

يحلقون بسرعة البرق حول القدس وباتجاه السحاب

قبل انتهاء الركعة الأخيرة في صلاة الجمعة ، سمع صوتهم ورآهم يحلقون عاليا

فوق جماهير المؤمنين المصلين المقاومين لرجال الشر والإجرام

نزار الشويكي من سلوان القدس تأخر على صحبه

تأخر عليهم . لقد أصر أن يتم صلاته ولا يترك سلته ؟!

نظره الشهداء الخمسة متعجبين ! إنه يخر ساجدا ويمسك بيده اليمنى سلة !

ماذا تحمل أيها الحبيب المقرب ، ماذا تحمل أيها الزميل الأبيض ؟!

كان (شارون) قد قال بالأمس أطلقوا عليهم في رؤوسهم ، في وجوههم ، في عيونهم ؟!

فاقتلعت رصاصات جند الشيطان عيون المؤمنين الراكعين الساجدين

قفزت عيونهم من محاجرها متحررة من قيود الغرور وسجدت مع نزار في باحة الأقصى

تجمعت بين يديه سلة من العيون الفلسطينية المقدسة .

العيون الباكية الخاشعة التي هي على النار محرمة

طار بها قمرا مضيئا وشعبا من الأنجم.

نثر نزار بين ماء السحاب عيون القدس ، فهطلت تبلل أجساد الشهداء الستة وعيون المصلين.

قبل انتهاء الركعة الأخيرة وعلى جدران المسجد الأقصى قفز الألم
وتفجر الدم القاني
وتجددت شرايين القدس وتسارعت دقات قلبها.
٢٠٠٠/٨/٢٩ فلسطين .

محاورة مع شهيد : منك السماح يا شيخ أبو عاصي

هو: جلست استذكر الماضي القصير ، وتحسست مواضع الرصاصات الثلاث التي اخترقت جسدي منذ انتفاضة النفق ، فقدت عينيّ الخلفيتين ونازعت نفسي بين الكراسات والدفاتر ، أو بين لقاء المصطفى والمسيح ، في الطريق إلى مفرق الشهداء بغزة كنت أجد نفسي يوميا بين صفوف الجموع الثائرة ...لا تسألوني كيف وصلت !لأنني تركت الإجابات في الخارج ، تركت الإجابات في الماضي ... ربما كنت أطير .

أخوه : كان محمد يسبح مع الموج البشري الهادر يرفض الغرق والأشكال السداسية الحاقدة ، كان يعبر بعينيه لما وراء البحر منذ الطفولة والى الطفولة ، أظنه يستعيد ذكريات الخارج من الأمس بحرا من يافا البعيدة دون زوايا ... هناك حيث ترك جدنا زيتونة دامعة وبيتا مقاوما ، وحسرة قتلت والدنا .

هو:أنا لست أنا ، أنا هو ذاك الغائر العينين متغضن الجبين حاد النظرات محير اللفتات ، أنا لست من تنظرون إليه ، أنا هو ذاك متقطع الأنفاس منذ ثمانين عاما هي عمر جدي ، أنا هو الصائم القائم المتهجد الباكي ، أنا هو الذبيح والجريح وابن فلسطين المسيح !... وهو في منذ كانت عكا وحيفا ويافا تجاور البحر ، ومنذ كانت يافا قطعة في قلبه ، أنا هو في قلب لا ينبض إلا مع أنين البرتقال الدامع في عيني جدي المتكئ أبدا على عصاه الملازمة كفه اليمنى منذ الخروج القسري بحرا.

لا تسألوني كيف وصلت ، لأنني توضأت فجرا أسبغت الوضوء وتركت الإجابات في بحر الخروج ، وثقوب الاختراق في جسد الزمن القزم .

أخوه: نظرت إليه على شاشة المرئي فلم أصدق ! لقد كان يبتسم وهو الذي عاش حياته القصيرة متجهما فكيف يبتسم ؟! سلكت طريق الحرية ودرب الكرامة أسأل الريح عنه : كان يلقي حجرا هنا ، هكذا قالت لي ، ويختبئ من صواريخ طائرات الحقد المتورم هناك ، هكذا قالت لي الريح ...تبعت آثار الآلام ودرب القناديل . وفي مستشفى الشفاء حيث كان يرقد أخي محمد يوسف أبو عاصي بأعوامه التسعة نعم التسعة فقط !يرقد مبتسما ... حينها تيقنت من صدق كلام محمد أن جدي كان يتخلق فيه كل ثانية وكل آن فهو لن يموت كما لم يمت جدنا... لقد كانت عيناه قنديلين تلمعان ببريق

ثمانين عاما أضاءت المكان نفرة من عرفات إلى كعبة الشهداء ، أضاءت المدى وحرقت قلبي .

هو : أنا للشهادة ذاهب ! ولا أملك أن أنقدك أجرة (التاكسي) ، سامحني !

السائق : منك السماح يا شيخ أبو عاصي ، منك السماح يا شفيع السبعين وجار الحواريين ، إليك اللجوء وفي عينيك الهدى ...يا أيها السائر صامتا قانتا حافيا على درب الأنبياء والصديقين ، منك السماح يا رفيق من نحب وعليك السلام أيها الطير المغرد فوق رأس سيد القدس .

أمه:اجلس يا محمد ، ودعني أصب لك كوبا من الشاي ، اجلس يا محمد ودعني أنزع عنك حذاءك وجوربيك ، اجلس بقربي يا ولدي واتركني أقبل عينيك ومواضع الشرف الثلاثة في جسدك ، أراك ما زلت متجهما أم تراك ابتسمت ؟! دعني منك أقبض على طيف وجهك ونور عينيك وتراب رجليك ، دعني أتشبث بريحك الزكية وقلبك الوديع . لا تتركني لجسدي الواهن وظهري المتمرد وعيني القلقتين ، دعني اقبل فيك ريح الخلود وألم اللحظة وعنفوان الوقفة ، دعني أنام بجوارك إلى الأبد .

رفاقه الصغار(يقبلون رأسه الواحد تلو الآخر): سامحنا يا سيد الوردي ، سامحنا يا سيد الأحلام ، سامحنا يا سيد الأطفال الرجال ، سامحنا يا مربد الشعراء وحارق الجدران ...منك نلتمس

العذر وفيك نحتذي ونعدك نصرا محققا أو السير حبوا لك لاحقين . نتجدد فيك ومنك ، ونتخلق فيك وننمو عمرا على أعمارنا . ثمانون جدك فينا وروح الطهر فيك تظللنا ، وعبرك نقفز بحر يافا ؛ ونسرع في ضوء قناديلك للخروج .

عزيز التنح ...القمر الشهيد !

عزيز...الصديق العزيز ، استشهد .

توفي عزيز وهو يرفع رأسه وبيده قلم ، وباليد الأخرى علم .

على إثر إصابته في مدينة بيت لحم لحق برفاقه ...واستشهد .

كان يناضل كادرا مضيئا في وكالة الأنباء الفلسطينية (وفا) ،

ما نفع معه مبضع الجراح ولا عناية الأطباء ،

فقد تم اختياره رفيقا علويا ...فلبى النداء.

في تونس العشق التقيته قبل سنوات ...فتى يافعا ذو وجه قمري وضاح ، دائم الابتسام ،

صريح الطروحات ، متفائل الفضاء ، منشرح القسمات .

في مقر (وفا) التقيته هناك ، حيث كنا نذهب كل مساء نترقب النشرة .

في فلسطين استمر عزيز مناضلا يقاتل بالقلم والروح ، بالبسمة والعمل ، بالحركة والأمل ، بالتوثب والصرخة ، بالعطاء المتصل الذي ميز القمر الشهيد عزيز .

كان قد اتصل بي أخي وصديقي رائد أبو جورة من عمان قائلا (إن لي قريبا فتحوي يعمل في وكالة (وفا) عندكم في تونس ، اقترح عليك التعرف عليه ولن تندم) !

وكان كذلك ...حيث عرفت عزيز ولم أندم .

لقد استشهد عزيز التنح ! ومن الشهيد تعلمنا .

من تركت خلفك يا عزيز القلب الكبير والعمل الكثير ؟

من تركت بعدك يا عزيز السجايا ، والفعل المتجدد؟

من تركت وراءك في بيت لحم حيث قومي بني تعمر الراسخين هناك منذ فجر التاريخ ؟

أتركت أخوة أم تركت أهلا وأصدقاء أم تركت إرثا ...!!

من الأوراق والأقلام والذكريات والآلام والأحلام ،

وعروسا ؟!

مهما كانت تركتك ...فإن انبعاثك شهيدا لا يموت رسالة ،

من الأرواح العلوية إلى الأجساد الدنيوية فينا رسالة ،

تقول بكل بساطة : أن عزيز قد استشهد...استمروا.

في سبت اكتمال قمر الانتفاضة شهرا تاما ،

وإثر عودتي من (بالوع) المواجهات على مدخل(البيرة) الشمالي علمت باستشهاده.

تصفحت الشبكة (الإنترنت) فإذ بخبر وفاة القمر الضاحك عزيز صاخبا.

بعد صراع مع جراحه لعدد من الأيام المرهقة توفي عزيز ...رقد هانئا في رحاب الرحمان.

عبر الهاتف عرفته لأول مرة في تونس ...

وعبر الشبكة استقبلت نبأ استشهاده وأنا في رام الله...

وبين هذين التاريخين لقاءات ولقاءات كان فيها عزيز دائم التجوال والحركة والأمل .

حمل فوق كتفيه آمالا عريضة ...وحمل في نفسه برتقالا ولوزا كثيرا وزيتونا !

لقد كان عزيز ابن الأرض التي حلم فيها طويلا منذ صعد تونس وغالبا قبلها... حتى ركب سفين العودة .

عزيز التنح كان ينشد الاستقلال وينظر القدس فقضى على الدرب مطمئنا!!.

فيك يا قمر (وفا) ، يا قمر بيت لحم ، يا قمر التعامرة ،
يا قمر فلسطين نستنشق ياسمينا ، ونذوب عشقا،ونمتلئ سعادة
في روحك العزيزة نذوب ونحيا وننبعث زيتونا ومحبة .

إن الشهيد فيك وفينا يغفو لكي يعود لأنه لا يغيب أبدا؟!

بكاء ينتظر!

* في رثاء شقيقي عمار محمود أبوبكر الذي استشهد وهو يمتشق بندقيته منتصب القامة في مواجهة العدو الغازي أثناء معركة الدفاع عن جنين القسام في ٤/٣/ ٢٠٠٢ .

عندما أسلم والدي الروح كان المجال مفتوحا للبكاء ، فقد كان من الممكن أن أبكيه مجتمعا مع الآخرين أو منفردا به ، معانقا إياه أو متأملا وجهه السماويّ ، في البيت حيث توفاه الله .

وكان من المقدور أن أبكيه طويلا في المستشفى حيث سجيّ الجثمان تمهيدا لنقله من فضاء العروبة الضيق إلى رحابة أرض فلسطين .

وربما تقترب أو تتكاثف الدموع لتملأ فيَّ المآقي وأنا أجاوره في سيارة الإسعاف التي حملته إلى جسر الكرامة العربية المهدورة .

وقد تفوت مثلي هذه الفرص ولكنني كنت أحتفظ بحق البكاء على قبره حيث رقد أخيرا إلى جوار أخيه الشهيد منجد في رمانة الراقدة على كتف الطريق إلى مدينتنا حيفا .

بكيتك يا والدي مع توفر كل هذه الفرص بعد عام وفي صلاة التراويح التي عودتني واخوتي عليها ، فعذرا على الفرص الضائعة وعذرا على عزيز الدمع في حضرة الأحباب .

أما أنت يا عمار الجبل الشامخ والمرج الواسع فكيف أبكيك ؟!

لقد سقط البكاء منكسرا دون انتظار ، وغاصت الدموع في عمق المسافات المقفلة ، وزاغ البصر في اللامكان ، وثارت الكوامن وانطفأ القنديل ، وتمزق فينا الجسد الرث وانطفأ النسيج ، فكيف أبكيك ، دلني على الطريق ولا تسل عن الثمن ؟! .

و"طوبى لمن يبكي أخاه مجاهرا ولكنني أبكي لفقدك في سري"

لقد غيّبت المفازة و قوافل الشهداء المتتابعة طعم الحزن ورجفة الألم وأنة الرثاء ونشيج الروح ، وانتصر التريث على البكاء الجهريّ ، وبرز الصمود في شخص عمار في مقدمة الركب يمتشق بندقيته الذهبية ويصارع الدبابة الشقية فيصرع الريح ويسقط في حضن الحصاد ، لينبعث النور الإلهي من جسد الشهيد فيضيء نهار الفوز وتزغرد جنين بعطاء الجبل وانبساط المرج .

لقد قالها صاحب أبيك وعنوان النضال والنجاة والرضا من قبل : هذا جهاد نصر أو استشهاد . فكيف أبكيك ، دلني على الجادة ، ودعنا نقتحم الموت معك ؟!

أيا عمار الحبيب والشفيع والقريب البعيد أين أبكيك ؟

أأبكيك في رصاص الغدر الصهيوني ؟ أم أبكيك في فوهات البنادق النازية المشرعة في وجه الأمة وفي صدرك ، أم أبكيك سرا في منعزل ، ودون جسد أو مكان أو نظرة سكون .

أأبكيك دون نظرة وداع واحدة لوجهك الدريّ المتلألئ ، أين حالت حواجز القهر والعذاب والقتل بيني وبينك وبين ضمة واحدة تكفيني ليوم العرض ، أو شمة واحدة لرائحتك الزكية ، أو ربما قبلة لرأسك المثقوب برصاص الحقد ، أو لمسة أو كلمة أو دمعةٍ أو زفرة حارقة على صدرك المنشرح إباء وبطولةً !؟ أين أبكيك ؟!

عمار سر الروح الطاهرة

ووجه أبيه السماوي

وبطل انتفاضة الأقصى

عمار أمنية الشهادة المتحققة

وعنفوان المجاهد المنتصر

عمار الهاجد المسلم القصيّ المحمود السيرة

فارقتنا ربما ولكن قطعا من الروح بقيت تنمو منك فينا فاسمح لي واخوتك ورفاقك وأبي أن نبكيك ؟! في عرسك نبكيك محبة ونبكيك أملا وندعو ونصلي ونركب البر إلى مثاوي الشهداء.

منذ الصبا كنت تشتم في عمار غبار المعارك وصراع الانطلاقة دون قيود وكنت تشم فيه رائحة الخبز وطين الأرض ورماد العيون وزيت البنادق .

ومع عمار كنت ترسم حدا لامنتهيا لقامة المقاومة وطمأنينة قلوب المؤمنين وبريق عيونهم المتجدد ، وتهجد أصواتهم ورفعة جباههم .

ومع عمار كنت ترى فيما يراه النائم أجساما نورانية تحف به ، وعباءة فردوس ، ودلو ماء .

وتضحك معه قليلا من أيام صبا قضى في ريعانها يقرأ القرآن ويجمع عروق الميرمية ويشم رائحة الزعتر ويغرف من منهل الآخرة صبرا وجلدا وحبا ناعما ورباطا وانتظارا.

في بيت عمار لا ترى إلا الله في سماء البيت وأركانه وفي عيون أطفاله الثلاثة ، وفي فكر الكبار من الأئمة القاطنين روحه التي ترسم سكينة الفائزين .

بعد عام موعدنا وربما أقصر لنرسم على صفحاتك لون الفجر وصباح التقى ورفعة القضاء و رباب الحليب وأنشودة العطاء .

عمار يا حبيب القلب ودمعة العين وصعقة الفؤاد ، قد ينتظرنا البكاء ، ولكن ارقد بسلام ومنك إلى الحبيب المصطفى محمد والى الوالد وصحبِهِ أجزل الصلاة والسلام .

رجل الأرجوان الشيخ طايل فرج والقسام

عندما كان يرقب البهجة كان يشم القسام ويتابع حركاته البريئة ونظراته المرحة ، كان يتذكر فيه سنوات النضال الماضية وأيام الصعود في قمر الشقاء ودهر التعب ، وبدا كأنه يستجلب من ثمرة صلبه مددا متكاثرا وطحينا لسنين الكفاح الآني ، عندما كان الأرجوان في الشيخ ينتفض كان يتنفس فلسطين و القسام.

لم يستطع الشيخ طايل أن يحدق طويلا في وجهي ابنتيه رنيم أو سلسبيل فلقد كانت اللحظات التي تفصله عن درب الصديقين صاعقة ، والفواصل التي تقربه من الأكرم منا جميعا بارقة ، ولكنه احتفظ في ذاكرة الأبد بصور لا تنمحي علقها بين شقائق الروح وأرجوان النفس كانوا فيها خالدين.

لقد دخل القسام الكبير في فكر الشيخ ، وصنع منه صنفا ذهبيا دائم البريق كثير الإشعاع سعيد الانبثاق في أرواح الأصدقاء وقلوب الجار الصاحب والجار الجنب ، وفي قلوب من سمعوا عنه. لم يترك أبو القسام في محيط الجماهير موجة إلا صارعها ، وثغرة إلا أغلقها وفجوة إلا رممها وعثرة إلا أقالها لقد رحل رجل الإصلاح والمصلحة ، رجل القضية والوفاق .

جعل من التضحية بوقته وجهده شعارا ، ومن خدمة الناس كل الناس هدفا ، ومن الذوبان حتى مستوى العشق في شؤون الآخرين غاية ، ومن بذل المشقة متعة ، فالطريق طويل والزاد قليل والأجر على قدر المشقة .

تنحبس الأنفاس وتنقبض القلوب فالحدث جلل والمسألة الجامعة ليس لها إلا الفرج القادم من مسار الحاجات ، يرفع الحشد المؤتلف رؤوسهم ويديمون النظر إثر انتظار محمودٍ حيث الباب ينفتح في الزمن المناسب ليظهر الشيخ في عباءة القسام بقسماته الباسمة وحكمته البادية .

لم يته الشيخ في الأصول فكانت العقيدة فيه صافية راسية راسخة رسوخ الجرمق وجبال الخليل ، وكانت حركة (فتح) المبادئ فيه طريقا مرصوفا وسبيلا للخدمة والفعل والاندماج بالجمهور ، وكان الشيخ الأرجواني في وعيه الملتزم بصلابة جبال نابلس وصفاء غيوم عيبال . ما حار في الفروع ولا في الترغيب والتقريب ، حيث أتقن الإصغاء وألِف اشتقاق الحلول وابتداع البدائل وحل مشاكل الناس في الصغير منها والكبير .

فتى الأرجوان القلق ، رجل الناس ، وإنسان التنظيم ، ولمسة الرفق في مدى العصر يرحل والكثير من المشاهد مع الناس لم تكتمل ، يرحل هكذا دون أن يضم القسام الصغير في حضنه ودون لمسات الحنو مع رنيم أو سلسبيل ، يرحل تاركا صورا وذكريات ومآثر لا تزول .

أم المحمديْن تطلُ من جنين !

كان لا ينام !... يصحو كثيرا ، فزِعا مذعورا !... يتحسس بندقيته ومسدسه ، وبندقيته الأخرى ، وخنجره وجعبته المليئة بالذخيرة والطعام ... والمنظار الليلي ، أين المنظار الليلي ؟! والدرع الواقي والخوذة الواقية ، ومسدسه الآخر وهاتفه النقال ... لا يغفو حتى يصحو ليتحسس أكياس الرمل لعله يشعر ببعض الأمان !

لقد أعطوه أوامر واضحة ... أطلق النار وعليك أن تصيبهم في مقتل ؟! لقد علموه بصورة فاضحة ؟؟! أن سدد باتجاههم ولا تصبهم إلا في الرأس أو القلب ودعك من الذراع أو القدم .

تمكن منه الذعر حتى جعل في أصابعه الجليدية ردة فعل الجزع مقابل الإقدام الذي لا يعرفه .... الخوار مقابل الإرادة التي لم تتخلق فيه حتى أضحى أعجز من أن يكون إنسانا !!

أطلق القناص رصاصة من بندقيته باتجاه صدر كبير غطى وجه الأرض ... فاخترقت عرَق الفلاحين ، وأهازيج النسوة في ليلة الحناء ، وبسمة أطفال المدارس ، وعيون الصبايا وصوت الزجالين ، وقلوب الأمهات .

أطلق الحقد مقذوفا باتجاه صدر المسّاد ... قالوا أنها اخترقت الصدر من الجهة اليسرى إلى الجهة اليمنى مرورا بخاله نزار وأخيه محمود ... أي مرورا بالقلب ! سقط وثغره باسم وعيناه مفتوحتان على درب النجوم ، وعلى وجه أمه ، وجع أمه .

صرخ البطل محمد لطفي مسّاد :أخ، أنا قادم ... في قلبي حملت زيتونا أخضر وقبرا ظليلا ، رائحة البرتقال وزجلا ، وخبز طابون وشايا محلى بكثير من السكر ... في قلبي افترش محمود حليب القمر وبساط النجم الأقصى، وزرعت أمي شجرة ياسمين ، وأهدتني البارحة أكلة مفتول

و دعاء آخر وقبلة من خالي نزار وعلم فلسطين .

قناص ملول ... يقتله البرد في شتاء وطننا المبارك ، وتلجمه حجارة أطفال فلسطين ، وشباب جنين القسام عن التلذذ غرقا في أحلامه المشوهة ... مغتصب آثم يشتعل قلبه ... الأجوف إلا من بطانة الحقد فيه ، ويطلق رعبه ، جبنه ، خوفه مدويا في سماء الجلمة ... طاخ طاخ طاخ !! يتحسس أعضاءه وأكياس الرمل وبطانة قلبه المظلم !! يجر انكساره ويكاد يفتك به جبنه !! لا يدري كيف ومتى سينام دون قيامة !

أطلت أم الشهيدين المحمدين من آل مساد ، فرحا ذا ألوان ،عبر فرجة في الأسلاك الشائكة ، داست ظهر المحتل المنكفئ أبدا ... بثوبها المورق اخضرارا ، ووجهها الموفور إصباحا ... في ثغرها تشاهد برقين ، وتسمع أنينا وحنينا على ولدين و شقيق ودعته منذ اثني عشر عاما .

أطلت في سماء أخيها الشهيد نزار ... رأته يعانق عز الدين الوقور شيخا يجاهد . ورسمت في عمق الإباء خطا مستقيما ، رفعت

عينيها إلى السماء وتمتمت : يا رب ؟! وألقت بألوانها على جسد محمد ، لفته ، لفعته احتضنته ، مسدت شعره ... تماما كما فعلت منذ شهرين مع أخيه محمود !! عاد محمد ولم يبارح صدرها ، تغني له حين توقظه صباحا ، وحين يغمض عينيه على حلم الزيتون الأخضر وخبز الطابون و الخراريف ورائحة البرتقال والزجل ... أشاعت من برقين إلى جنين إلى كامل مساحة فلسطين حبور الشهداء وعزة الثوار الموروثة منذ انغراس القسام في حيفا وربما قبل ذلك بكثير.

أطلت جبينا كتب التاريخ فيه سفرا لثلاثة، سفرا لأقمار لم تتوقف عن المسير ... تمشي دون أقفال ، دون أثقال ، دون أحمال ، دون مشقة .... فقلبها بوابة لا تغلق ، تصعد منها الطيور والمستأنسات وكل البشر .

انظروا إليها مليا !... إنها لا تطرق رأسها ولا تنظر إلا إلى الأمام حيث الحجر يصرخ ، والحجر يرتفع ، والحجر يسخن ، والحجر يهوي ، والحجر يغطي جسد الأطهار ... كان لها عيون ثلاث فقدتها كلها ولم تفقد البصر بل ازداد حدة ! وازدادت فيها البصيرة مضاء والحب كثافة والعشق اقترابا.

أطلت أم الشهيدين المحمدين عرق ريحان كتب في التاريخ سفرا لثلاثة ، سفرا لأقمار لم تتوقف عن المسير ... قد تظنون أنها تبكي ولا ملامة !! وقد تلحظون في عينيها ملايين الدموع ! وقد

تحسون في قلبها سخونة الوجع المركّب ، وقد تغرِفون من بحر صبرها سبع سنين ، ولا ينضب المعين ... وقد ترجون ألا تطيل التحديق في وجوهكم فتدمع منكم الحدقات ...

أطلت نَفَسا مشبعا برائحة خبز الطابون ، وعبير الميرمية وزهر الحنون ... وكل ما قامت به إطلالةً أن مسحت بيدها على وجهه ومكمن جرحه ... ونظرت إليه كما الشمس تحنو على شموخ الشجر ... إنه المحمد الثاني هذا المسجى في ربيع قلبها المتبول ، إنه المحمد الثاني يبتسم ترقب اللقاء قبل مغيب الشمس ... قبلته وغابت قائلة : إليّ احملوه ! ... إلى مثواه السرمدي حيث طال الانتظار أخذوه... حيث كان نزار أخو الشمس قد أعدّ البسط لاستقبال المحمدين منذ سنوات ... في المنطقة الممتدة من النجم القريب إلى النجم الأقصى وقف ينتظر، طال الانتظار، ولم يبق على انبلاج الصبح إلا القليل !

كان القناص يفتح حدقتي عينيه على اتساعهما هلعا ... يتساءل : من أين له بالألوان ومن له ليفرش البسط ، ومن أين له بشمس وعرق ريحان ... كيف له أن يغتال الأقمار ويحارب النجوم ، إنه لايفهم .؟؟!

فيصل الحسيني ... شهيد القدس

عندما كان فيصل الحسيني يظهر كانت صورة القدس هي أول ما يقفز إلى المخيلة ، وعندما يتكلم يحس المستمعون أو الحضور بحرارة الكلمات تتدفق من شفتيه وهو يصف معالم القدس من مساجد وكنائس وأسوار و حارات وشوارع وحوانيت ... وينقل شعوره الحزين والغاضب معا حتى تراه في وجوه الجميع .

في إطار سلسلة من الندوات التي أقامتها هيئة التوجيه السياسي والوطني حول ملفات الحل النهائي ، دخل فيصل الحسيني محاضرا عن ملف القدس بقامته الفارعة ووجهه الهادئ والحزين والمبتسم أحيانا إلى القاعة ، حيث قوبل بالتصفيق والمحبة ، ولما انطلق "أبو العبد" يصف قلبه وعينيه وعقله أي القدس كاد الحضور يدمعون كلما حزن وصفا ، ويثورون كلما غضب شرحا ، ويجولون معه في أزقة وبيوت أهالي المدينة الصامدين ، وبين أزاهير الذكرى المنغرسة بين القبور وفي صدور العشق الفلسطيني الأبدي لمدينة السلام .

كان فيصل الحسيني الرجل السامق دمث الخلق ، هادئ الطباع ، خفيض الصوت ، عفيف اللسان ، الثائر والقائد الميداني ، تراه في كل مكان في القدس ، وفي كل مكان خارجها يحتضنها أنى حل وأنى رحل ... لم يمل يوما الحديث عنها ولم يكل التجوال محذرا ومنبها

ومشخصا وموضحا للخطر الداهم الذي يحيط بالقدس وبه وبكل أبناء الوطن حتى كانت وفاته هناك في الصحراء صرخة علها تسمع آذانا أصابها الصمم منذ سنين خلت .

يُفترش الدربُ بالياسمين والصعود في استقبال "أبو العبد" ويرتفع النضال درجات مع مسيرة فيصل ، ويتعانق الشهداء في عليين معه ، ويجدون الخطى للترحيب بشهيد القدس .

٢٠٠١/٥/٣١

رام الله –فلسطين

صعود الشجن !

في رثاء صديقي المهندس محمد عبد المعطي عبيدة .

أحببت بساطة الحزن وعمق الشجن
لم أمنع تكاثف الغمام في نفسي وبرودة أوراق الشجر
وأطير فرحا عندما أصغي لصوت وافر يتسلل إلى روحي
صوت غصن مبتل أو صخرة أو صدفة في عمق المحيط
في يوم الغضب الفلسطيني –وكل أيام فلسطين غدت أيام غضب–
تسقى الأرض بماء الخلود وترفع رأسها لتغتسل وسط القبور
أين تسكن القوافل ويستريح المعذبون

تحت البلل والصخور ومع المحار
محمد عبد المعطي بساطة الحزن الذي فارقنا هكذا؟!
فارقنا في البعيد دون غضب
فارقنا دانة انطفأ فيها البريق وأحرقت قلوبا لم تدرك عمق الفقد
إلى حد الولع كنت أطرب لصوت الرصاص يهدر
ولصوت اللؤلؤة الشجي ولصوت التراب صوت محمد
ولصوت أم كلثوم يندفع من حنجرة محمد
في الجامعة حيث كنا معه
اكتشفنا البساطة قوة ورقة المشاعر ودفء العيون نهضة
كله كان فيه مع مسحة الحزن الطاغية
والبسمة الدائمة المبهمة وانتحار الأنا
كرهت بوفاته- هكذا دون ضجيج - ضجيج المدافع في سماء رام الله وغزة .
كان يضحك ملء راحتيه وينثر الضحكات في كل مكان
امتلأ قلبه حزنا امتد مع مرض زوجته فتبادل معها المواقع ، مات هو.!
كان الشجن في روح محمد قافلة
يصعد كتفيه مذ عرفته -هكذا صدفة- في الصف الابتدائي الأول
وبعد أن فارقته أعواما اثني عشرة لألتقيه في الجامعة
وأفارقه بعدها بحجم الفراق الأول

كان محمد صوت الغصن المبتل بعمق الأرض
والشجن الوافر الصاعد مع برودة أوراق الشجر
انطفأ هكذا ببساطة دون وداع.!

فلسطين- بيرزيت ٢٠٠١/٤/١٠

تيسير خطاب ويقين الشهادة !

عندما ركب أخي الدكتور تيسير خطاب سيارته في منطقة الشيخ عجلين في غزة أدار مفتاح المذياع فإذا به يصدح (إني اخترتك يا وطني حبا وطواعية، إني اخترتك يا وطني سرا وعلانية) فابتسم لا سيما وأنه في يوم عيد ميلاده الثاني والأربعين ... وعلى أرض الوطن التي طالما حلم بأن يطأ رمالها وترابها طائعا مختارا وإن برفقة لم تتم مع صديقه الشهيد عاطف بسيسو، الذي كان ابنه عاطف على اسمه.

كان الدكتور تيسير يتصفح صورة أولاده ووالديه ويدور بين محطات كثيرة أوصلته بعد تونس إلى غزة الوطن ، وكان يحمل في ذهنه عددا من البرامج التدريبية وخطة عمل لدائرته لستة شهور قادمة ، وكثير من التفاصيل ، وكان يختزن مجموعة كبيرة من الأفكار المتصارعة لم يستطع أن يحسم أيها يختار ، فرجل الثورة ورجل الأمن ، يحتاج للتفكير والتأمل كما يحتاج للكثير من المعلومات التي يعالجها بالتقاطع والربط وانتزاع الفكرة الجديدة من معلومات

مستقرة أو حديثة ، تتصارع وتتعدد البدائل ومنها يختار، دون أن يخامره شك أو يصارعه خاطر يبعد عنه يقين الشهادة ، والتضحية والإيمان بالنصر .

يتمتع رجال الشهيد القائد صلاح خلف بكثير من الانضباط والتضامن ، كما يتمتعون بالرزانة والاتزان والتفكير المنطقي وهذا ما كان يميز صديقي وأخي الشهيد الكبير ... لقد سطعت روح صلاح خلف في أفئدة مساعديه ورجاله وكوادر جهاز الأمن الموحد الذين عكسوا تجربتهم الثرية تخطيطا وتنفيذا ، ثورة والتزاما ، وعنفوانا ومحبة ، تواصلا وإخلاصا ، إعدادا وفعالية ، شكا ويقينا عكسوها في إطار جهاز المخابرات العامة الذي رأسه أحد أكبر نواب الشهيد أبو إياد ، وهو اللواء أمين الهندي . وكان د. تيسير من هؤلاء الكوادر والرجال ذوي الأفئدة المليئة بيقين وروح الشهادة وعبق فلسطين والثقة بالثورة والإيمان بالنصر .

هل ترى الدكتور تيسير كان يردد مأثرة حسن البنا (ما هذا الجسم إلا قفص أنت فيه من المسجونين ، وثوب تخلعه إلى حين ، ثم يعود لك يوم الدين) أم تراه كان يسترجع في ذهنه فقرات من قصة ديستوفيسكي عن السجون والمعذبين والمعتقلين (مذكرات من بين الموتى) أم تراه كان يردد في ذهنه مقطعا من قصيدة الشاعر سليمان دغش محمدنا الصغير أو يستمع لوشوشات دروب قصيدة الشاعر ربحي محمود أم تراه أحس أن ثوب العيش قد آن أوان خلعه

فتشهد وقرأ شيئا من القرآن الكريم وأغمض عينيه وأسلم النفس قبل ثوان من ملامسة نار الغدر جسده الطاهر .

كنت قد اتصلت به قبل يومين من استشهاده وتحدث بصوت فرح ، وهدوء ميزه قائلا ربما نراك قريبا في غزة فقلت له إنشاء الله ! وتركت السماعة وكأني أرقب وجهه الطلق الباسم ، وروحه المرحة ، وأشهد دقته في العمل ، ووفاءه المعهود وجده الصارم ، في رجال قدت أجسادهم من حديد ... من قفص يستخدمونه وسيلة للعيش وتحقيق الأهداف ، وثوب مؤقت يرتدونه إلى حين الانتقال لدار الرحمة . تيسير كأس الماء البارد في قيظ الصيف ، ونسمة الريح المشبعة برائحة الياسمين ويود البحر، تيسير المنطلق من قبل طلوع الشمس إلى دير البلح وجنين والخليل حيث السطوع موعود ، والعيون مكحلة بتراب الأرض والوجوه معفرة برمال الشهداء وجنائن الخلد .

ان الاغتيال سلاح الغادر للطعن في الظهر ، وأسلوب الخساسة في المواجهة ، وأسلوب ضعف (القوة المادية) في المواجهة قوة (الضعيف ماديا) القوي شموخا و ارادة ، إن الاغتيال أسلوب العصابات وقطاع الطرق ودول الإرهاب المنظم العاجزة عن مواجهة خصومها أو قدرها ... وبالغدر والاغتيال قضى عديد من شهداء أمتنا وشعبنا .. وأضاءوا في الدروب قناديلا لا تنطفئ على المدى.

لم يستشهد أمير الشهداء خليل الوزير إلا برغبة منه ، كما لم يستشهد كمال عدوان إلا برغبة منه ولم ينتقل صلاح خلف وهايل عبد الحميد وأبو محمد العمري وإخوانهم جميعا لدار الحق إلا بإرادة ورغبة شديدة بالفوز ، والشهادة فوز ، والشهادة انتصار للروح على الجسد الفاني ... لقد تميزت قيادات وكوادر حركة(فتح) بيقين الشهادة و بقدرية مفرطة جعلت من تخففهم من الاحتياطات الأمنية سمة طبعتهم ، وصفة لصقت بهم وجعلت من إمكانية الفوز لأرواحهم هدفا ساميا لهم ،ودنيويا لعدو يعتقد ان فناء الجسد يحقق نصره وكان خاطئا ، ومن هؤلاء الرجال كان تيسير ... لربما كان يردد قبل الوعد بثوان (الفتح مذ بدأ الكفاح رجالها مستيقنون بأنهم شهداء)

كلما سمت روح تعاظم اليقين وازدادت المقاومة صلابة ، والثورة اشتعالا ، والشعب صمودا ... والنصر ثباتا.

بير زيت في ٢٠٠١/٩/١ يوم استشهاده

زيت الجبهة وجسد أبوعلي مصطفى .

ارتبط اسم الجبهة الشعبية في الضمير الوطني والقومي بنهج العمل الموسوم (بالتقدمي) المشدود بالأيديولوجية (الماركسية-اللينينية) كنظرية علمية للصراع المجتمعي والقومي وضد العدو،وبحتمية انتصار الاشتراكية والطبقة العاملة في مواجهة

الرأسمالية والبرجوازية والرجعية ، كما ارتبط بمحاولات الجبهة الجادة أن تمثل تيار(الرفض) العملي أو البديل الجاهز أو المعارض الدائم (لليمين) الفلسطيني الذي يقود الثورة ، بما يقدم (اليسار) الطليعي والتقدمي وحده كقائد للثورة بالتآلف مع تنظيمات اليسار الفلسطيني الأخرى ، لينتهي ذلك كله عبر التراكم الكمي والتغير النوعي خلال عقود بتطور في الوعي وتغير في المفاهيم لدى الجبهة التي ارتضت دور الشريك المقاوم والصلب في النضال عوضا عن دور البديل الأوحد أو المعارض المناكف أو الخصم المشاكس .

كما مثل اسم الجبهة الشعبية صعودا نضاليا (علميا) جعل من كوادر الجبهة ينخرطون في مدارس حزبية وتعبئة أيديولوجية وآلية تثقيف جدلية افتقدتها عديد التنظيمات وعلى رأسها حركتنا حركة (فتح) ، وتميزت بذلك الجبهة حتى بعد انهيار الأيديولوجية وتحطم المعسكر الاشتراكي وسقوط جدار برلين لتقدم في مؤتمرها الأخير الذي انتخب فيه أبو علي مصطفي أمينا عاما ورقة فكرية فلسفية متماسكة أشعلت زيت العقل فينا وحركت كوامن الجهد العقلي والنقاش النظري والفلسفي ، قد نتفق أو نختلف مع الكثير مما احتوته ورقة الجبهة ولكنها دللت على تمسك الجبهة الأمين بالمنهج والفكر كمسيرِ للنضال وموجِه للخطط ومحددِ للتنظيم ومرشد للعمل ومقياس للأداء .

لقد ارتبط اسم الجبهة الشعبية بتياراتها المختلفة ميدانيا بالعديد من العمليات النوعية منذ أواخر الستينيات وفي السبعينيات والتي أحدثت هزة في العالم وأثارت الحيرة والكثير من التساؤلات ، رغم ما شاب النظر لمثل تلك العمليات الخارجية من تهم جاهزة وصعبة بالإرهاب ، والذي أصبح في يومنا هذا يطال كافة أشكال المقاومة الشعبية للشعوب الساعية للاستقلال والتحرر وفي مقدمتها بالطبع شعبنا الفلسطيني ، ولكن الجبهة بصلابة النواة التي انطلقت منها تواصلت في فكر ثابت وعطاء متجدد وسعي أصيل باتجاه فلسطين ، وإن كان بأعين مدهونة بالزيت اختلفت عن أعيننا نحن تلك الأعين المكحلة بحركة (فتح) .

في مرحلة الطلاب والعمل النقابي حيث النفوس ثائرة ، والقلوب واجبة ، والأصوات هادرة ، وأمواج العقل تتراقص في ذبذبة عالية ، وحيث التشدد والمثاليات والتطرف عنوان ، كان الصراع النقابي محتدما – وارقبه ما زال وإن بمفاهيم أخرى وبوجود تنظيمات جديدة– بين فتح الوسطية في المحيط العربي الإسلامي من جهة وبين اليسار الفلسطيني أو جبهات الرفض من جهة أخرى وعلى رأسها الجبهة الشعبية ، وكانت كوادر الجبهة من الهمة والنشاط والفعالية والتنظيم مما يحوز على الإعجاب ويشي بالغلبة ، حتى أن فترات الفوز لحركة (فتح) في الانتخابات الطلابية كانت تقابل من كوادر الجبهة الشعبية – أصدقائنا– بالتهاني والاقتراب

لحركة (فتح) لا السلبية والابتعاد ، رغم شراسة المعركة الانتخابية وشعاراتها الكبيرة والبراقة أو المثيرة والمبالغ فيها أحيانا إلى حد الاستفزاز .

لقد حازت كوادر الجبهة على الاحترام رغم الاختلاف ، ومثلت خصما عنيدا في مراحل الاحتراب التنظيمي والسياسي إبان مرحلة الانشقاق في صفوف حركة (فتح) منذ العام ١٩٨٣، وعلى أثر اتفاقات (أوسلو) منذ العام ١٩٩٣ بشكل أساسي ، وظلت السمة التي لازمتهم هي الاهتمام الشديد بالنظرية والمنهج وإن على حساب العمل ، على عكس حركة (فتح) التي تضم قطاعات عريضة من الاتجاهات (العملانية) متفوقة بالأداء على ضعف الإعداد الفلسفي أو التعبوي المطلوب .

إن الجبهة الشعبية ويسار (لاح العلم الأحمر لاح بين الزعتر والشياح) مثلت زيت الثورة ، ومثلت سندا ديمقراطيا في إطار فصائل الثورة ثم في إطار منظمة التحرير الفلسطينية رغم شعارات ديكتاتورية البروليتاريا ، وحتمية انتصار اليسار ، ومثلت صورة مغايرة ورواية ثانية وتحليلا مختلفا ، واجتهادا موصوفا وطريقة تفكير أخرى ، وتجربة على ما فيها من سلبيات وإيجابيات نفتخر بها كفلسطينيين وكعرب وكثوار ونتعلم منها ... لقد كان وجودها ضرورة الواقع المتأزم وثورة بساط الريح والسير في حقول الألغام واكتشاف

الثوار المسلح والمتدرج لأهمية التعددية وتنوع أشجار الزيتون وضرورة الاختلاف في مساحة الجوامع الوطنية المشتركة .

عندما غادر أبو علي مصطفى فلسطين مسد جسده بزيت الزيتون وودع أشجار البرتقال وسلم على صخور عرابة وحيطان البلد ، واختزن ما استطاع في رئتيه من نسيم فلسطين الذي استمر يشعل فيه الحياة ٦٢ عاما انتهت به قتيلا عظيما بصاروخين حاقدين دمويين نقلاه من مدينة البيرة إلى حيث مثوى الشهداء .

لم يترك أبوعلى فلسطين إلا ليعود إليها محملا بأثواب الكرامة وعيون الانتصار . انضم لحركة القوميين العرب التي أفرزت الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين بزعامة جورج حبش الذي وقف أبو علي إلى جانبه في كافة مواقع النضال وعندما أصبح نائبا له ثم أمينا عاما للجبهة في العام ٢٠٠٠ وعلى أرض الوطن ، لقد دخل أبو علي فلسطين فرِحا بالناس والصخور والشجر وبالعودة وحزينا بافتقاد الشعب لحق العودة المقدس ،وأظنه استشهد فرِحا بنسيم الوطن وحزينا حيث النضال الطويل والترقب لم يصل به ليشهد العلم يرفرف في القدس عاصمة الدولة الفلسطينية المستقلة . لقد كان أبو علي مصطفى قائدا واضحا وشخصية هادئة رزينة وفكرا متقدا وروحا ثورية ، وداعية وحدويا كما كان يحدثنا عنه رفيق دربه وأخوه من حركة (فتح) وأحد قيادييها البارزين ومسؤول التنظيم فيها أبوماهر غنيم .

كان الشهيد القائد البطل أبو علي مصطفى جسدا زيتونيا ورمزا من رموز العمل الوطني وكانت - وما زالت- الجبهة تنظيما ملتزما ووعاء عطاء متصل وبوتقة وعي وطني جعلت من أبو علي وكثير من رموز الجبهة والتي منها الرفيق والأخ العزيز ناصر أبو عزيز من قيادات الجبهة واحد محرري سجون الاحتلال والمبعدين الأبطال يمثل روح عطاء كوادر حركة (فتح) في الجبهة ، ونمثل عنه (الجبهة) في قلب حركة فتح فكرا وتأصلا وحوارا في حركية وطنية ثورية لا تعترف بالعصبوية الضيقة أو الأحقاد أو الثأر الفصائلي ، مع عمق الانتماء الوطني ثم التنظيمي كل لإطاره ووجهة نظره ورؤياه الوطنية .

إن المسيرة الوطنية الفلسطينية بما فيها من انتصارات ونجاحات أو كبوات وعثرات و رغم الحواجز والعقبات أفرزت زنودا صلبة وأذرعا منتصرة وأكفاً متشابكة وأفكارا متعددة ولكن غدت متكاملة ، وشراكة عمدت بالدم ومسّدت بالزيت كان منها الشهيد القائد البطل أبو علي مصطفى وكانت منها الجبهة الشعبية .

لو رأيتموه والبريق يشع من عينيه !!

في النظرة الأولى ليوسف ، يخرج المرء عنه بانطباعٍ محدد وتوجس : أنه شديد وقاسٍ ! وقد يظن المرء أنها من مميزات شخصيته . إلا أن لتواصل الاحتكاك معه خاصة في محيط النشاط والعمل يفضي لاكتشاف مؤداه أن يوسف في حالة الانهماك في العمل قد يبدو شديدا ؟! ولكنه في شدته الظاهرة هذه حقيقة قدرته على العطاء اللامحدود والإخلاص ، والاستغراق في العمل إلى حد الإنهاك له ولمن حوله ، وحقيقة السعي الحثيث لإتقان العمل ... شخص بهذه المواصفات لا بد أنه يحمل عقلية منظمة وتفكيرا منفتحا ورؤيا علمية مع حب كبير ووفاء وهذا ما عرفته وعرفناه لاحقا في الأخ والصديق يوسف الجلاد وسط عائلته وأقربائه وأبناء بلده ، وقبل كل ذلك وسط زملائه في العمل ووسط أصدقائه منذ عهد الصحراء الظالم إلى عهد الطرق الالتفافية والتنقل المرير بين أضلع الوطن .

عندما قدم لنا يوسف أخاه محمدا في عزاء المرحوم والدهما قال : أعرفكم على أخي المستوطن محمد الجلاد ؟! لقد كان في هيئته يشبه المستوطنين الفلسطينيين الأوائل الذين قدموا إلى هذا الوطن وخالطوا العرب الكنعانيين وأصبحوا أمة واحدة ... ثم كان أن سرق أولئك المسمون (المستوطنين)خطأً اليوم ، سرقوا الاسم كما سرقوا

الأرض والزرع والهيئة تماما كما فعل العبرانيون الرعاة عندما دخلوا فلسطين حفاة عراة وانبهروا بحياة الكنعانيين العرب ذوي الممالك والحضارات فتنمطوا بأشكال حياتهم وثقافتهم أكلا وشربا ولغة وملابس ودينا .

قلت أن يوسف (أبا أحمد) قدم لنا أخاه باسم المستوطن محمد ، وكان هذا المحمد رجلا ظريفا لطيفا محبا رغم ما يداخلك لأول وهلة من توجس لدى رؤيته تماما كما هو ذاك التوجس الذي يداخلك مع أخيه يوسف ؟! عرفه أصدقاؤه ذا كد وذا جلد ، يجهد في عمله ويكدح ولا يترك مجالا للصدفة . لقد كان نموذجا للرجل العصامي ورث لأولاده من الصفات ما سيجعلهم أبناء بررة .

عندما رأيت صورته على الصفحة الأولى في صحيفة الحياة الجديدة ... عرفته ، إنه أخو أبي أحمد ، أنه المستوطن الكنعاني الفلسطيني الأصيل ... لقد كان مستشهدا!؟

في الناحية الغربية من طولكرم حيث يسكن محمد الجلاد ، عاد مساء من عمله والمنطقة تتعرض لإطلاق نار صهيوني حاقد كثيف لم يمنع محمدا أن ينطلق باتجاه بيته ، ولكن الحقد والكراهية وعيون المحتلين تمتهن رؤية الدم وترغب في تعظيم لغة القتل مذ كذبوا في التوراة على لسان الرب والأنبياء أن أقتل مخالفيك ؟!

أصابته الرصاصة الأولى في كتفه فلمع في ذهنه إياد ثم جهاد ثم لقمان ثم اسحق ، أولاده ...، اندلق الحليب ليغطي وجه محمد

وكأنه يغتسل بالطاهر النقي الأبيض ويودع سواد القلوب وملفوظ العقول في غزاة التاريخ واتباع القتلة المقدسين فيهم داخل تلمود ذوى وانمحق .

أصابته الرصاصة الثانية في الظهر حيث غطت صورة ابنته الوحيدة بين أربعة صبيان (دلال) صفحة السماء ووجه القمر وعيون طولكرم ، وحامت فوق الرؤوس وقبلت بين الجموع والدها المسربل بالبياض والعلم الفلسطيني .

أطلق المتهودون من بلاد الخزر البعيدة حيث الصحاري المقفرة والثلوج السوداء والعقول المقفلة وحيث لا صلة ولا تواصل لهم مع فلسطين لا عبر التاريخ ولا عبر الجغرافيا ...أطلقوا على محمد رصاصة في الرأس حيث لمع في الذاكرة المحمدية اخوته منهم إبراهيم وكان يوسف .

قال لنا أبو أحمد مهاتفا يرثي أخاه :

لو رأيتموه والدم الغزير يغطي جسده الطاهر ، ويحف به لحظة الميلاد الجديد كل من أحبوه، لوددتم ألا تفارقكم صورته إلى الأبد .

لو رأيتموه والبريق يشع من عينيه ووجهه متخللا شعر لحيته الفلسطينية لوقفتم مشدوهين مكبرين: الله أكبر .

ولو شممتموه ورائحة الجنة تحيط به وتنز من خلايا جسده الحية لتمنيتم مرافقته حيث الأنبياء والصديقون والشهداء.

رعاك الله يا أبا أحمد وأعانك وأبناء الشهيد وكل ذويه وأهله على فقده وعلى خلو المكان الأرضي المحدود منه وامتلاء القلب السماوي الممدود به !! على عدم لمسه صباح مساء وعلى تكاثر ذكرياته في العشي والأبكار .

فلسطين -رام الله-طولكرم في ٢٠٠١/٢/٢٦

عاهِـــــدُنا

عندما استشهد عاهد استمطر البِشر فينا
فكان عاهد المولود والطريق والمستقبل يتهلل
وكان الفناء ينسحب ...والهموم تنزلق ...ويتسامى
وعندما امتطى عاهد محمود فارس براق الخلود
كانت الأضواء تبرق في عاهدنا المولود و تتألق
وكان حرس الشرف يطلق بالونات الفرح
فالشهادة في عاهد وثبة لعاهد
يحوصل النشيد في جبين الشمس .
كان عاهد يستبدل بردته... بلفاع الأطفال الطاهر
ويمزج فرحة اللقاء حيث لا ظمأ ...ببكاء الميلاد الطلي
ويستبدل الماضي... بالمستقبل الزاهر ، وحياة موصولة وعاهد جديد

لم يقدم سني عمره للمجهول دون ثمن
ولم يلطخ وجه الكون بالدم عبثا
ولم يكتم صرخة النجدة في جرحه تكبرا
ولم يغمض عينيه خشية
لقد عاهدنا امتشاق الروح فداء الوطن
فقبلنا منه ، ما قبله عاهد ياسر أبو بكر
لقد أخذ عهد الديمومة منذ الميلاد الجديد...واكتمل عاهد في حياة تحبو
حيث الفاتح من نوفمبر كان مولدا لعاهد البشر المستمطر
ما جعل من تسامي عاهد الوطن
روحا لعاهدنا .

* في ٢٠٠١/١١/١ كان يوم مولد الطفل عاهد ياسر أبو بكر ، الذي حل فيه اسم الشهيد عاهد محمود فارس من كتائب شهداء الأقصى الذي اغتالته قوات الاحتلال والغدر في بيت إيبا - نابلس في ٢٠٠١/٨/٢٢ .

الفهد المتوثب يطرح السلام ويمضي!

عندما تدخل المكان تشم رائحة غريبة تتسلل رويدا رويدا حتى تستقر في رئتيك ، وتعصف بفكرك ،وتحس بصمت مدو ، صمت كبير ، صمت ذاهل ، صمت مقدس يبعث على الاحترام.

لا تدرك أن هناك نشاطا إلا بالاحساس فقط فلا ارتباك ولا ضجيج مفترضا في مثل ذاك المكان الذي كان الولوج إليه أمنية والتحدث للأشخاص القلائل المتوزعين بين الغرف القليلة المتواضعة فيه شرف كبير لكل من يصبو إلى القفز في عالم الرجولة .

كان اللقاء ولو مصادفة فيه شيء من التبرك وكثير من الدفء ،كيف لا واللقاء مع الفدائيين في حضرة الزمان الثائر.

في مكتب حركة (فتح) كان الداخل يترك وراء ظهره رعونة النفس وضيق الصدر، ويلبس ثوب الارتقاء وكسوة البياض روح موضوعة على كف السلام.

ضمّخت يديها بالحناء واختارت من الملابس أجملها ودخلت من البوابة قاصدة وجهة معروفة ، تحادثت مع الحارس الجالس منذ الانطلاقة فأشار بيده وتكلم بضع كلمات كانت الفتاة الجميلة الأنيقة بعدها تدخل إلى مكتب صغير يشغله أحد الأخوة الذي ما أن طلبت منه لقاء الأخ المدير حتى كان الرجل المهيب ماثلا أمامها .

لقد سمع صوتها وهو في مكتبه بالداخل فخرج مرحبا تعلو وجهه ابتسامة رضا وتخرج من فمه عبارات الترحيب الفلسطينية

المعروفة أهلا وسهلا أهلين ومرحبتين كيف حالك عمي ؟ تفضلي ، تفضلي .

لمحني جالسا أنتظر فقال : أهلين عمي ، من تنتظر ؟

قلت له : أريد لقاء الأخ أبو خلوي ؟

قال :(ابن مين أنت)؟

قلت : ابن محمود أبو بكر .

قال : (دون أن يسألني عن سبب المقابلة وموجها كلامه للسكرتير) لماذا تركته ينتظر ولم تعلمني، لا تفعلها مرة ثانية ؟

ارتبك الرجل فالصبي الجالس لا يتعدي من العمر الرابعة عشرة ولا بد أن لمثله أن ينتظر فهو صغير وما يحمل من مواضيع ليست بأهم من كلام الرجال ومواعيد الفدائيين . هكذا قرأت الأفكار في عقل ذاك الأخ ، وفي وجه الفتى رامي زهير الدويك بعد عشرين عاما من هذا اللقاء، الذي لم ينبس فيه الرجل ببنت شفة .

قال أبو خلوي :عمي ولا يهمك دقائق وأراك !

لم تتأخر تلك الجميلة الأنيقة في مكتبه كثيرا فقد كان المكتب مليئا بالرجال والنساء وكانوا ينتظرونها على ما يبدو ليتموا ما انعقد مجلسهم لأجله، لم أستطع إلا سماع قسم بالله ولفلسطين يردده الحضور في مكتب الرجل ذي الوجه الصامت المبتسم .

ما كان يشغلني في تلك اللحظات هو كيف لامرأة جميلة أن تكون فدائية ؟! وهو ما علمته لاحقا بعد أن خرجت الجميلة المضمخة

بالعبير و أخريات كن بالداخل مع عدد من الفدائيين الشباب لينطلقوا إلى حضن فلسطين المنشرح المرفوع عنه الوزر للجميع.

في العام ١٩٧٤ خرج من أقاليم (فتح) بالعالم ومن إقليم الكويت وعبر اللجنة العسكرية العديد من الفدائيين والفدائيات ليضربوا في أصقاع الدنيا وضد المحتلين في عمل وضع فلسطين على جدول أعمال العالم .وكان أبو خلوي من هؤلاء الرجال الذين أسهموا بالرفد والتنظيم والاستقطاب والتجهيز والإعداد وكذلك كان والدي -رحمهما الله-.

مع خروج آخر شخص رافقهم أبو خلوي إلى البوابة الرئيسة مودعا الجميع ، وعاد ليمسك بي من يدي ويدخل بي إلى مكتبه . كان طلبي بسيطا إلى درجة أنني شعرت بالتوتر والحرج الشديد من ذكره في مقابل ما رأيت وسمعت من أصحاب الهالات الصاخبة والقامات الباسقة.

تشجعت أخيرا وقلت له أننا نقيم احتفالا في المدرسة ونحتاج لعدد من الملصقات والشعارات والميداليات. فعاد ليبتسم !! وأوعز لسكرتيره أن أعطه كل ما يطلب فكان ما قال وودعني وكأنني مثل من سبقوني .

تغيرت الأمكنة وتغير في الزمن ما صنعنا فيه فكان العام ١٩٨٤ عاما حافلا بالصراعات التنظيمية والسياسية والفكرية التي عصفت بالثورة الفلسطينية وبحركة (فتح) وكنا في الجامعة كما كان

غيرنا في مختلف المواقع يخوضون التحدي الكبير ضد الفساد والإفساد ، بين الإصلاح والتغيير في (فتح) وبين الحفاظ على الإطار والاستقلالية ، فتوزعت التيارات الثوار وعكفوا يفككون رموز المعادلة فمنهم من تيامن ومنهم من تياسر إلى أن انقشع غبار الصراع عن ما دبر بليل فكان التجاذب نحو الوسط سمة حركة (فتح) وسر ديمومتها ، ولم يبق في البعيد في أحضان الغير إلا قلة مقهورة أو مقموعة أو مجبرة أو منتظرة أو مبعدة قسرا في إطار تصفيات ارتبطت بحدة الصراع ونتيجة المعركة .

في ذاك العام الذي توليت فيه المسؤولية في اتحاد الطلاب والتنظيم الطلابي كان الأخ أبو خلوي أحد الذين انهمكوا يفككون المعادلة ويسعون للحقيقة فكان أن جلست في نفس مكتبه ذي الرائحة الغريبة رائحة الثورة والعاصفة الذي تحول مقرا للتنظيم الطلابي في حركة (فتح) بالكويت .

لقد كان أبو خلوي يترك الكويت كثيرا ليرسم شكل الوطن القادم عبر خوضه المعارك ضد الاحتلال وأعداء الثورة في بيروت والجبل والجنوب والبقاع وكل مواقع النضال ، لقد كان مقاتلا شرسا كما قال كل من شاركوه الخيمة ورفقة السلاح و لقمة الخبز و حبة البندورة وحبة الخيار وأمل الغد ورحابة الحلم وقدرة الانطلاق وعزيمة الفهد وعيون الصقر ورغبة القبض على جمر المدى .

وكل من عاشوا معه أو مثله مثلنا وغيرنا كانوا ينتظرون أن يسفر النهار عن حياة دون قلق ودون حواجز ودون دوي بعد كل غارة للطيران الحربي الإسرائيلي الحاقد وللقصف المدفعي المدمر هناك في لبنان ، وهنا في غزة ورام الله بعد سنوات التجوال على بساط الريح.

في العام ١٩٩٦ كان زهير خلوي الدويك (أبو خلوي) يزاملني في مقاعد المجلس الوطني الفلسطيني في غزة ، هو هو لم يتغير ابتسامة مشرقة وأملٌ لا ينقطع وشباب متجدد وعنفوان محبب وحركة لا تهدأ ، ووجه صامت يشي بالثورة لم يشِخ إلا من بعض التجاعيد وكثير من الشيب الذي غزا شعره الكثيف ، وشعري المنحسر بعد أيام تونس التي زرعت فيّ الاخضرار وكثيرا من الألم ، نفس الألم الذي أصاب أبو خلوي في الماضي منذ العام ١٩٨٣ حيث انفرط عقد (فتح) وكان الانشقاق ولو لفترة كانت محزنة وشديدة الوطأة على كل مثالي محب مخلص دؤوب متفان مثله لا تهزه المحن ولا يتوقف عند حدود الشجن .

من أين لكادر أو قائد عمل في إطار التنظيم كثير بدائل ومن أين لكادر نقابي أو جماهيري أو سياسي نشط ومنفتح ومستقيم أن يرفض الانخراط في إطار هيئة التوجيه السياسي والوطني حيث تنفرج أسارير عثمان أبو غربية وتتسع بالآخرين دوائر فكره ومجالات نشاطه فكان أبو خلوي أحد أعمدة الهيئة تماما مثلما كان

أحد أعمدة (فتح) بالكويت وفي لبنان ، في العسكر وفي الغربي وفي إطار التنظيم الصاعد وفي أماكن أخرى ربما لا نعرفها.

تواصلت سنوات العمر منذ انتمائه لفتح في العام ١٩٦٦ لاهثة تحاول اللحاق به؟! وهل تستطيع حتى السنون أن تلقي السلام على فهد متوثب ، لا يهدأ ولا يلتفت إلى الوراء، منطلق كالسهم ، منفلت من عقال الدهر يصبو للوطن ويروم القدس ؟! وهل تستطيع السنون قهر الأيدي التي قدت من جبل الخليل والصدر الذي نبتت فيه كروم العنب !والعين التي دمعت لموت الثوار فيهم واسطة العقد ماجد أبو شرار وخالد الحسن ؟!

في رام الله كان المستقر الأخير لأبي خلوي مع كثير من الصباحات والفاكهة والانتفاضة والأزاهير والقصص والقهوة المرة والكثير الذي قد يذكره الزملاء به بشحنات متصلة من العواطف والحنين لا تخلو من النوادر والمآثر والسجايا .

ما بين إلحاح نجوى وقوة إصرارها و تفتح أماني وحركية إنشاد وفداء ، وتوثب روضة ، ولباقة هالة وصدمة الجميع مع زهيرة والملازم أول أمل ومريانا وكوادر الهيئة جميعا مضى أبو خلوي بهدوء الفهد بعد انكسار الريح وتوسط الشمس .

بعد رحلة صيد عامرة أطعم منها الجميع مع كثير من الذكرى والاشتعال وفي تصادف مع الشهيد يوسف علان في أربعينه، ربما حينها قرر أبو خلوي أن يطرح علينا السلام ويمضي ؟!.

أكثر من خمس سنوات قضيناها مع أبي خلوي في فلسطين وفي رام الله لم تنطفئ فيه جذوة العمل ولا لهب التواصل ولا لمعة الذهن وصوت الأمل ولم تنقطع عنده رائحة الثورة والقهوة، ولا رائحة البخور والتمرد ، خمس من السنين الجديدة على أرض الوطن لم تحتمل عناد أو بريق أو تجدد أبو خلوي أو إصراره أو لحظات صمته حتى أرهقت منه ، فكانت المنية له سلاما و راحة في أحضان النور الدائم والحياة الخالدة .

يا أيها الرجل المعبأ بالرجال وبالمضاء (١)
من ذا يصبرنا يشد الأزر
يحملنا إلى قصص البطولة والفداء
من ذا يزودنا بحنكتك الرزينة
والتمسك بالمبادئ والأصول
من ذا يعفرّنا بضحكات الصغار الوادعين
يا أيها الجبل المدجج بالبراكين التي لا تنطفي
في الفجر أو في الظهر أو عند التباسات المساء
خذ فجرنا وأهنأ وحلق
سوف نمضي في دروبك لن نحيد

(١) من قصيدة نسر الخليل للشاعر رخي محمود ، مفوض الإعلام و رئيس تحرير مجلة فلسطين اليوم . رام الله في ٢٠٠١/٢/٢٧

ذوبان القمر!

كان قاعدا بجوار السرير ، يتحدث بتدفق كما خرير الجدول المنساب أو حفيف الأشجار تتمايل مع كل هبة ريح ، صوت خفيض رخيم ، يتحدث ويبتسم بشوق لكل من حوله ، وسيم هو حين يتدفق ، وقلب محمول على كفي الياسمين ، وزرع مأكول في مسار النجوم

دخلت من باب الغرفة فهب واقفا مرحبا بأسارير وأكف مفتوحة واتجه حيث علبة العصير الموضوعة على الطاولة الصغيرة ، صب منها كأسا قدمه لوالده والدي المريض المتعب والممدد على السرير في المستشفى ، وصب كأسا أخرى قدمها لي !!.. عاد إلى مقعده واستمر يتدفق ، ينتشل البهاء من عمق قلبه الذهبي ، ويوزع نظراته بيني وبين والدي والعدد القليل من الزوار حيث الساعة تقترب متباطئة من منتصف الليل .

كان والدي يستمطر الحياة الأخرى قطرة قطرة ، ويخرج ذاته من فناء الحاضر بصعوبة وألم ، لقد كان ألم الولادة الجديدة في الدار الباقية أكثر شدة وقسوة من ألم أمه حين ألقته لضوء الشمس في مدينة حيفا قبل أكثر من سبعين عاما .

يتألم وينكر ، يغمض عينيه ويصرخ عاليا دون صوت ، يشد الوجع إلى قعر الغابة ولا ينطق ، بينما سعيد يحوم حوله كالفراشة متنقلا بين السرير والغرف ، وما بين الدواء ورشف العيون ، يقدم روحه الذاوية قطعة قطعة . ما ظننت يوما أن أرى سعيد وبعد سنين

قليلة يرقد في نفس السرير الذي انتقل والدي عبره إلى حيث لا عين رأت و لا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر
عينه اليسرى مغطاة بضمادة كبيرة ، ولكن نظره ازداد حدة ورؤيته اكتملت ، يبتسم والألم يتجمع في جبينه ويتكلم بهدوء الجمل ويقين القمر بعد هلال عصيب دون كلل أين يتجمع الأحبة حوله متحلقين باكين بصمت .

كان ابن عمي سعيد وزوج أختي قمرا ذائبا في شؤون الناس ، حيث الكلمة عنده ارتباط ، والسعي مطلبا والخدمة واجبا والحب مادة يومية ، وملح الحياة ، والاهتمام بالآخرين قافلة لا تنقطع محملة باللؤلؤ ومغموسة بإجار من العسل .

كان القمر يذوب ويذوي ليرى الآخرون انسحاب آخر قطع الليل ، ينكمش متفكرا كيف يمد وأين يمد ولمن يمد يد العون حتى وهو الممدد هذه المرة على سرير الانتقال نحو دار السرر المرفوعة والأكواب الموضوعة والزرابي المبثوثة والنمارق المصفوفة . سألني سعيد ماذا يمكن أن يقدم لي وأظنه فعل ذلك مع كل زواره مطروحا على سرير المرض ؟

لم يمهله القدر أن يكمل أعوامه الأربعين فقطف قمر شبابه وقلبه الذهبي وبسمته الحيية وقسوته على نفسه ألا يحزن أو ينظر غاضبا في صباح أحد ، وليترك من الأطفال الصغار رجالا قبل انفلاق الحبة ، وأفراحا منحبسة في صدر زوجته .

زرته في المستشفى كي أظفر بآخر حالات اكتمال القمر قبل الغفوة ... نظر إلى بوداعة ونظر لزوجته وقال باسما أن الأطباء أخبروه أنه مصاب بورم في الوجه امتد إلى العين و أردف : لكن هذا الورم يحتاج إلى عملية ، ولا تخافوا فالعملية بسيطة ؟! وظلت أمه تبكي وزوجته تتجلد كما كان شأن أبيها في أحلك أيامه ، واسترسل يسأل عن الحال في فلسطين ، عن الأقارب والأخوة والأحبة ...خرج بعد العملية من المستشفى إلى البيت لينتقل خلال أيام طويلة عجاف بين المحطتين .

إليك اعتذر يا سعيد القلب الذهبي الطافح ألوانا وعشقا

إليك أعتذر إنكاري المرض فيك وعدم رفع الصوت بالشكوى وحق الحزن .

والتمس منك العفو حين الهزء بتصاريف الدهر ووسن النهار

وتكذيبي فيك ذوبان القمر في إناء القدر

من الله عليك رحمة وخلود

وفي الله لنا ملجأ وصعود .

وجعٌ مقيم.. ووجعٌ نامٍ!

الوجع المقيم

خرجت في صباح انتفاضة ماطر، وفي شارع ملتو بالضباب أجد الخطى نحو شرخ بان في جدار السماء... أتلحف غضبي واضغط على أسناني علّ ألم الرأس يخجل... في المتسع القليل أمامي تتناثر حبيبات القلق، ورذاذ الكآبة يطبق على خلفية الصورة عديمة الألوان ليرسم لبيكاسو ما لم يحلم به... وجع مقيم، وجع أجنبي، وجع يحتل نصفك المتبقي وعمرك و شوارد ذهنك، يعتصر فيك قمر الليالي و أمل الإطلالة على صباح دون حجر أو مساء دون وجوم... وجع مقيم، وجع مهيمن، وجع ملطخ بالأحمر دون ألوان الكون... يثير فيك صوت احتكاك النجوم وانفعال العاصفة ودموع الفجر... سرتُ مستأنساً بحقبة من الزمان ألغيت فيها الوجع، فلعبت فيها مع إناث النحل، وعصير العبث، ورقة الكواحل وهمس اللؤلؤ في كتاب الامس. أدير المفتاح في ثقب قفل حانوتي المتواضع وسط مدينة غزة.. حيث أقيم منذ قرون لا أعرف القهر ولا الأسى ولا الوجع إلا منَ عقود أسقطت الإناث والعبث والكواحل.

الوجع المتراقص

في الانتفاضة رفض و انعتاق... وفيها غرق في المضمون وشديد احتكاك... تتراقص الأحلام والأهداف والمخاوف والريح و المدلهمات أمام روحك المنشقة، وتنجرف الرؤى من باطن عقلك إلى كفيك وتنكب على قدميك لتتدحرج دون أثر... فتصبح اللاشيء في حديقة الأمس الجائر.

في أيام الانتفاضة يتحالف الحنق مع الغليان... نحنق حتى لا نجد ما نفعل إلا إشعال، مرجل الدماغ حتى الغليان لتتطاير الأفكار والكلمات والعذابات والآهات في حلبة الرقص في عيد الشقاء.
تتراقص الأشباح السود في سور الأيام الواقعة دون صبح آتٍ... و تتراقص الحقائق بين الولوج والتناثر، بين الضوء والشجن.
في يوم العيد الأسود تبح كل الأكباس، وتلجم الأفكار عن التقدم... فترقص من الوجع عروس لفتى كان قد همس في أذنها (مرام) أحبك، فتقدم محمود العمواسي (١)دون أن يهب للحياة (ياسر) أو (دموع)...

الوجع الأثير

أضع سبابتي في إناء الوجع، اغمسه ثم ارفعه إلى فمي، وألعقه... مرّ هو مكنون هذا الإناء، مرّ هو مذاق انطباق الصدر في وهن العزيمة وعند انشقاق الروح... ليس لك إلا هذا، تذوقه وإلا

فلن تجد ما تملأ معدتك بغيره، ترفضه المعدة، ويشتد فيك ألم الأمعاء، تضغط حتى لا تجد في جسدك خلية إلا موجوعة... في اليوم العشرين تتوجع وفي الشهر الخامس تتوجع حتى لا تجد من وجعك بداً فتألفه وتعانقه وجعا أثيرا.

كم من المرات أحاول، وحاولت، أن انفك من وجعي في مسار الحمامات المسروجة للركض في سماء أرض الرباط والوجع... ولكن هيهات ان تثب في غير المستقر والأثير.

عاد حاتم النجار(٢) من الجزائر ليصفع (إسرائيليا) محتالا، فيتمزق قلبه وأضلاعه و ينساح الدم من شرايينه ورئتيه من خانيونس إلى أريحا في إناء الوجع الأثير.

الوجع النامي

كما عرق الميرمية وعود الريحان وانبثاق الزمان وشهيق الفرس تعدو، وكما الطلوع لزهر الليمون وشدو البلبل في الحديقة الخلفية لدماغ وليد ينمو الوجع... يستطيل، يستظل بالفرح أحيانا، ويتدثر بالضحك أحيانا، ويطل من عمق القهر في بعض ما تسمع أو ترى.

من يستطيع أن يشتري قالبا من الكعك ليحتفل بعيد ميلاد الانتفاضة... الوجع النامي بين الضلوع وفي العروق، وفي الأقراص الفاصلة بين الفقرات دون أن ينتحب... من يستطيع أن يصنع ولو سنبلة قمح على كتف طفلة في مدرسة الكفيفات المليئة برصاص

الوجع النامي بين العيون المحدقة والعيون المطفأة... في البيرة، حيث ينمو الرصاص كما الأعشاب البرية، يكبر الألم وينكسر الخوف، ولكن ينمو الوجع.

الوجع المعنقد

أتألم حين أصاب بالمطاطي أو المعدني من الرصاص ...أصاب في عيني أو عنقي أو رأسي أو بطني ، وتبقى روحي محلقة تنشد السلام ... يتدحرج الوجع ، وخزات صغيرة ، كتل كبيرة ، وجع شديد ، يتناثر ، ينبسط على كامل أجزاء حلقي ...وروحي .

عناقيد من الوجع تتدلى من جذع روحي وتنتشر على لحاء فروع عيني ورأسي وبطني ... تضمني حتى أنكمش في حبة واحدة من الفزع ، من الوجع المعنقد .

في سيارة الإسعاف كنت أضحك ، فلا ألم ولا وجع بل همة تعانق النخيل ، وإرادة تكسح الكثيف من الوجع ولكنه لا ينتظر...يداهمني في المستشفى ويكشف ضعفي أمام عنفوان إرادتي ، يتدحرج الوجع وخزات صغيرة ليتحول إلى كتل كبيرة فوجع شديد يضم نفسه في عناقيد تتأسف لي وترجوني الغفران ... ابتسم وأنا أحلم بتسرب الألم خارجا من أرنبة أنفي فلا أصحو إلا مع صخب المطاطي والمعدني .. والوجع المعنقد

من الأيام تسعة عشر رقد علاء محفوظ (٣) في المستشفى يعانق النخيل ويلتهم الوجع إلى أن تغلبت الوخزات على روحه المحلقة.

فلسطين — بير زيت في ٢٠٠١/٢/٢٢ .

الهوامش :

(١) استشهد محمود في ٢٠٠٠/١٠/٣ ولم تعش معه من ام زوجته ذات ال ١٧ ربيعا إلا يومين استشهد بعدها ، بعد أن أمضت حياتها معه كالحلم ، وعادت لحياتها الأولى مع وجع في القلب ، ويأس ودموع أسماء أطفاله الذين لم يروا النور.

(٢) استشهد الضابط حاتم النجار عن ٢٤ عاما بعد أن حاول إنقاذ طفلين كانا يلقيان الحجارة من موت محقق .

(٣) أصيب علاء في ٢٠٠٠/١٠/٦ برصاصة بالرأس أثناء قصف قوات الاحتلال لمخيم العروب وتوفي في المستشفى في ٢٠٠٠/١٠/٢٥ عن ١٤ عاما ، أصله من يافا .

الجزء الثاني

الرجل المحيط يمتشق إيمانا.

على رأس الطاولة بنية اللون ، المصقولة ، بيضاوية الأطراف ، الممتدة وسط الغرفة ، في الطابق الثاني من مكتب المؤسسة مقر عمله نظرته لأول مرة منذ عشرين عاما، كان واقفا يهم بالخروج من غرفة الاجتماعات . رجل أنيق مهندم ، لا يتخلى عن البذلة وربطة العنق ، وسيم ، يتوج ثغره بابتسامة الواثق وضحكة الوزير وانشراح المؤمن ورضا الصوفية، في قمة عزة بادية عليه . وقف على رأس الطاولة فلمحت فيه عنفوانا بحجم الكلمة، وقامة بحجم الجرمق ، ونظرة بحجم المحيط . كان يضع يده على شعر رأسه الغزير ، يلبس نظارة ولحية صغيرة، تلفتُ يمينا أتطلع لرد فعل زميل ، فإذ بيده تنسحب إلى جيب (جاكيته) ويستل منها (سيجارا) أشعله ونفث منه سحابة دخان ثم أقلع .

وقف أبو علي المطري يضم بعينيه لحظات ما سيكون . ويختزن في عقله مواقف الغد ويكثف في قلبه ساعات المحبة القادمة . لقد اختزن في ذاكرته ، ذاكرتنا منذ تلك اللحظة أدوار وانفعالات وأحاسيس ورفعة وشوق وترقب ورفقة وانبجاس وتحليق وعناء

ومتعة وسلاسة خيوط الحرير التي شرنقتنا منذ قطع السرة إلى آن خروج السر الإلهي ، نافذ النظرات لا تكاد تصمد أمامه ! ومن ذا يستطيع الصمود في وجه صقر أو نسر أو محيط ؟ أبى إلا أن تكون القمة له مستقرا ، على رأس جبل أو في بطن السماء أو في قطرات سحابة ومع ومضات البرق الخاطف أو في سويداء القلب وتحت الجفون . نافذ النظرات ، نافذ البصيرة لا تضلله الكلمات ولا تعبث بمشاعره رياءات المترهلين ، ولا يكتب في دفتر عقله كلمات المنسحبين.

تشرّب الضوء شكل وقفته فأشع في الصدور المنقبضة لحنا بتارا ، وتسرب من عيون القمر ألوانا من صمت الفراشات وفجر الإنسان ، وانبثاق الغد من غدير التعب وقسوة الليل ، مازال الحسن واقفا هناك ، حيث أغلقتُ شاشة عقلي منذاك عند حد الوقوف في شخصيته الطاغية فأحببت فيه فعل التوقف ، يتوقف عند كل صغيرة وكبيرة ، فلا يأفل إلا مع اكتمال المدى وإشراق الصباح ، ولا يترك عمله إلا في حضرة الرسول ، بعد أن يكون قد حقق من العمل إنجازه وإتقانه .لقد كانت له ساعات المحبة القادمة ولحظات ما كان .

ما زال الحسن يتوقف عند كل صغيرة وكبيرة . وهل في العمل وهل في الفكر وهل في الله إلا وقفات ، بين يدي الله نقف نرجو ، نتضرع ، ندعو نستسلم نصلي ننشد الحقيقة، نتضاءل أمام الحق ، وفي العمل وقفنا معه في وعي وسعيٍ حثيث للتقدم، وفي الفكر وقفة

الإيمان المشدود بحبل الالتزام والإنجاز، لقد تعلمنا منه الوقوف ، فلا شيء يمر يسيرا ، وكيف لا نقف ورائحة الميرمية تفوح من أيدينا ، ولذة البرتقال اليافاوي لا تفارقنا ، وعذوبة العنب الخليلي تكاد تسكرنا، كيف لا نقف وفعل الاقتراب مازال في لبن الوطن ، وكوكب الاستخلاف ورمال المحبة والتقاء الفكرة كان يجمعنا ، ظل يجمعنا.

تكلم فدوت كلماته كالرعد، خرجت منه كبيرة وهل تخرج من الرجل الكبير سوى الكلمات الكبيرة؟ تكلم واقفا وأشار بيده أن أدخل ، فدخلت الغرفة وكان ما يزال يلملم بقايا ما لم يستقر من شؤون الاجتماع ، وربما شجونه . يحادث زميلا له في الشركة على عجل . تمهل أيها الرجل المحيط ، وتريث ، دعنا نتأمل فيك واقفا وإن مع سوانا ،نتبحر في روحك حلت فينا ، في شكل سجودك وركوعك لله، نبحر في سفائن قربك ، نغرق في بحر قادم أيامك معنا.

في اللقاء الأول تحسم النتائج ، فإما قبول وإما نفور إما إقبال وإما إدبار ، إما اقتراب وإما اغتراب ، ومعه ما أدبرت وما اغتربت ، لقد اقتربت لحظة إطراقه مصغيا لطلبي العمل معه ، فألقى بي في تاريخ ما سيكون (ما كان) وعظمة لحظات مرت حتى الآن وكأنها رغم طولها و ما لا يقدر بمال من قيمتها ولذتها وتأثيرها كأنها ارتداد طرف سليمان.

لقد آثر الفكر ، القدرة، الإدارة، الإرادة، النظام ، الإبداع، الإيمان ، الفعل على سلاح المرعوبين ، فلم يركب في حياته ظهر

دبابة ، وما كان للقذائف من نصيب في حياته إلا عبر كلماته تضارع انفلات الدوي في رعب النفوس الطائرة وتتحداها، لقد فاز رجل المحيط وانتصر ، ومعه حققنا الفوز.

وقف الفارس في كل موقف ، وبرز الفارس في كل دور ، وقدم الفارس في كل موقع ، استل فكره وإيمانه في مواجهة العوج والضلال والطغيان والانسحاب والتكاسل والخمول والتراجع وقتل الفتنة.كيف للرجل المحيط المكتسي حلة أنيقة ويقف في مواجهة بؤر الفساد يمتشق إيمانا ولا ينتصر ؟

كان ما يزال واقفا، شامخا يستمع ، هز برأسه وأشار إلى لسانه وانتهى الموضوع ، فوقعت في قلبي ألفة وسكينة ما شعرتها سابقا ، وافتقدتها في مقام انطلاق هذه الكلمات الحبيسة . وبين وقوع الألفة وافتقادها أعواما طوالا هي تاريخ علاقتي به، و التي انقطعت سنينا عشرة بالاغتراب والبعد القسري أين تجمد نظري فيه عند حدود الذكريات التي تذهب وتجيء ، وكلما ذهبت لا متني وعنفتني فتعود أكثر إصباحا وأشد طلاوة.

زهرة الليمون في مواجهة النهر

هو ،كان يجري بفرح طفولي ، واندفاع فتى ممسكٍ بمصير الفعل ،يتراكض من حول المرج ،يلتف عليه وينتصب هَرَما ،يتجول بين لهب الزيت والورع ، لا يصمد أمامه حجر أو حوت ، يطبق على

صدر الصمت ، ويقارع الظلمة ،يستأنس عطش القلب .كان النهر يجري وفي اندفاعةِ مسيرهِ لا يأبه بوجع الشرايين ، وقفزات القلب الثري.

هي، لم تألف إلا الفضاء مستقرا لها ، نظرت في عين الزيت وقلب الهرم فوقعت في حضن النهر ،قبس من نار ، حزمة ضوء لا تنطفئ ،شعلة حرية وجنون العظام التعبة ، وطلقة الوطن المخطوطة في دفتر الأمل ،مقدودة من نسيج الشمس ، تمتلك ست أيدٍ وثلاثة عقول ولسانا ذهبيا ،تمتلك بهاء(سيتا)،وأزمة كليوباترا وسطوة شجرة الدر وقسوة عائشة ولا تتخلى عن صبر فاطمة.

مرت بنا في البدء كلمعة ذهن ،ثم افترشت عشب الذاكرة وتخيرت بإرادتها هي _لا بإرادتنا نحن _تخيرت موقعها واستأثرت بقمح الفكر ورقة الثورة.

هل أدركنا مدى الحظوة التي انتثرت حولنا من زهرة الليمون القادمة حديثا إلى جامعة الكويت ؟هل أدركنا مدى خراب أرواحنا وقحل نفوسنا عندما أطلت علينا هي بروح شاعر وعباءة مناضل ؟هل أدركنا سبب انقطاع النفس وسبب مقتل البحر ،ورصد الليل ووجيب السنونو؟

مرت بنا شجرة سرو من عمق (عنبتا) واستأثرت !وفاح عبير الليمون وانكمش الزمن في نار عيون عاشقة النهر.

كانت تتجول في باحة الجامعة بعينيها المرجليتين !لا تكاد تقف فهي دائمة الحركة ،سريعة الوثب كغزالة متحفزة ، تخلع سقف المستحيل ولا تؤمن بالمقطع الأخير ،تنظر يمينا فتجدها ،ولا تكاد تنظر شمالا حتى تجدها ،من أغصان الشمس كانت (سناء)،ترسم عشق الجريان ،والصخب ،ولا تأبه بالعثرات ،ترسم القادم بقلم البحر الهادئ ،وعمق البرد والريح .مرت بنا وأدركنا فيها تلظي العواطف وسبب انتحار البحر وسرعة الغزال.

في اليوم الأول من الشهر الموجوع في عام الرمادة كان الفضاء الواحد يجمعنا ،تنظيم من الشابات والشبان في حرم جامع في أرض غُربة قاحلة ،تؤزم الجمل وتزعج الطيور ذات المناقير البيضاء ، وترفض النهر وتحتقر الهرم .ولكن القضاء كان الحكم في لملمة الجمع على قصعة فلسطين ،كانت منا وكانت فينا قاسما مشتركا أكبر بل جامعا، للطفل اليتيم والمعدة الضاحكة والدائرة المكتملة.

لماذا تصرخين ؟!أما آن لروحك أن تتأبط ذراع النهر وتطير في زمان الأنا لا تعرفينه ،أما آن لك أن تغلقي شحنات العواطف وفيض الشعور وتقصرينها على موجوع الشرايين ،أما آن لك أن تغلقي روحك المرحاب بمفاتيح النجوم ورمل يافا!انك كثير في واحد ،ورحيل في زمن الاستقرار ،وهدوء في زمن الرحيل ،تفاعل أفقي وتواصل عمودي ،فضاء غير محدود في الذاكرة والصخر والنهر وشكل الخوف .

كانت تجري في رحاب الصمت متعجلةَ غدٍ سرعان ما طالته، تحلمُ وتمسك يمناها بريشة القدر ترسم وترسم ، ماذا تفعلين يا ذات العقول الثلاثة؟لقد أتقنت سناء فن الرسم ،فرسمت في التنظيم خطا إنسانيا رفضت الجمود والتحجر وفرضت الروح في أغاني الحجارة والحب في فوهة البندقية،رسمت مجتمع التواصل وانفعالات الحرص الموجوع بآلام الآخرين ،رسمت شكل التحول فازداد حجم الدائرة وتخلى البحر عن ملوحته!

هل يلتقي النهر والشمس ؟هل يلتقي الهرم والسنا ؟كيف يقبل الغد على سفح النجوم ؟وهل يستأنس عَطِش القلب زهرة الليمون ،الكثيرة في واحدة !هل يقبل موجوع الشرايين عاشقة الصخب صاحبة قلم البحر وحاصدة قمح الفكر ؟نعم ،فهذان هما مصدق وسناء. .

زهرة الليمون ٢ :غزالة تطلع من كوكب الانتصار

وقفت تصرخ،ضوء متسرب من شق جدار ،لم تترك لنا فسحة الرد،ولم تسمح لنا حينها بالنظر ، فكيف نستجيب ؟

كانت تركض ،ولا تقبل للحق أن يتحطم حتى على مقعد الرئيس ،ولا تقبل للخواطر سيادة على الهدف أو العقل أو العمل .

تركض ، وقبيلة الماضي تسرع الخطى في أثرها ...يلهث ، يتباطأ، يتعب أفراد القبيلة ، يمسحون عرقهم وانبهارهم ،يتأففون من سرعتها! ينصبون خيمة في منتصف الطريق _لا بد مما ليس منه بد _وهي ما زالت تركض !

فقدوا فيها الزمن ، وغابت لتطلع شرقا فوق الشجرة ...سددوا باتجاهها الرماح ، لكنهم متعجبين ! بكل الرغبة في اقتناص الضحية ، وتحطيم الحمية ، وارتدائها سترا لبرد أدمغتهم الخالية ، وانسحاب الماضي ،سددوا الرماح .

تعجبوا غزالة تطلع شرقا من كوكب الانتصار ، تشق جدار عقولهم الخاوية وتصرخ في مساحة الامتداد من ثدي أمها إلى بسمة أحمد...ومازالت القبيلة تقف متعجبة ! غزالة في رداء شجرة سرو لا اختلاف بينهما ولا تباين.

أنا الأفق في عيون الوجع ، أنا الوجع في متن السعادة ،أنا السعادة في عري الخيمة ، أنا الربيع في قلوب المنكوبين ، والخريف يهدد ارتخاء المتخمين ، أنا الأمس في جدول لا يتوقف والغد في عين سكان النفق ، أنا الانفلات في عصر العزلة والفرار، والتلحد في انفلات الحرية ...

كانت القبيلة تنصت إليها ، وأيديهم ممدودة بموازاة صدورهم المندفعة إلى الأمام ، مشدودة ، مكدودة تقبض على ذنوبهم ! مصوبة باتجاه الضوء القادم من الشرق .

ما زالت فوق ،في،مع الشجرة ،الكوكب في وعي غير زائف ، تصرخ ونار الخيمة المنصوبة تتأرجح في الاتجاهات الأربعة ، وهم يتعجلون !

انهم أمة من العجلى ، لا يتركون للتريث موطئ قدم ،ولا يقبلون للصبر أن يثمر ، ولا للكرم خارجهم أن يتمر . انهم لا يتقنون من العمل إلا انتصاب الأنا ولذة هدر الوقت وتكديس الصورة في قناع الجدة واليقين وحقيقة الخفة والعُجب والكِبر والتهريج والسقوط المكين ،انهم أمة من الرمل الممزوج بالحقير من الطين .

تجرأ أحد أفراد القبيلة المتمترسة وراء سلاح خوفها ورماحها وماضيها المتين وأدمغتها السوداء فقال: لماذا أنتم صامتون ؟ وهي مازالت تتقدمكم ، وتلقي بضعفكم وجهلكم وأنانيتكم أمام أرجلكم ، وتجردكم من آخر ملمح رجولة فيكم أو شكل عزة ؟ هيا ...أطلقوا رماحكم ولا تحيدوا فيها عن القلب!

أشارت زهرة الليمون –القادمة غزالة تطلع من كوكب الانتصار_بسبابتها فانطفأت النار الموقدة أمام خيمة الماضي ، فلا بصر أبقت لهم ولا نظر ، وتواصلت ضوء متسرب من شق جدار .

ألقوا برماحهم باتجاهها، في خواء الأرواح الكامنة فيهم ،وانسحبت أنظارهم عنها وغابوا في سراديب الزمن .

وقفت تصرخ ، ولم تترك لنا فسحة الرد!!كانت سناء تقاتل جيشا من قبيلة الماضي _وأظنها لم تزل _تديم النظر بعقولها الثلاثة ، فما تعجز عنه في الأول تراه في الثاني أو الثالث.

تفهم الألوان ولا تحب الوقوف ، وهل يضني الغزالة الركض ؟ تفهم الألوان ولا تحب الوقوف عند حد اللون أو ضعف اللون أو مذلة السؤال أو لوعة اللقاء أو انتفاء الاتصال .إنها (سيتا) في بهائها وكليوباترا في أزمتها وعائشة في قسوتها وفاطمة في صبرها وشجرة الدر في سطوتها والخنساء في كرمها .

ماذا قالت لنا النار المطفأة أمام الخيمة المتمايلة لقبيلة الرماح الصدئة؟ لا استجابة في ظهر العيون ولا تسامح في أمة العجلى ولا جود يجدي مع أمة النفق ، ولا شفافية مع قبيلة الماضي .

تراجعت عند هذا الحد قبيلة الرماح السوداء فينا وازداد محيط الاستجابة وسكنت في سناء النفس بعد ثورة العشرين واستقر فيها البحر أربع قبائل ، يدمع نورا على خد الزهر وصدر الكوكب وعين الانتضار.*

---

* تمت كتابة الجزء الأول في ٢٠٠٠/٣/٦، وكتب الجزء الثاني في ٢٠٠٠/٤/١٣

الرجل المسرع في مسار البرق

عندما يدخل مكانا أو جمعا أو فكرا يثير من حوله زوبعة ، وعندما يتوقف ينظر الجميع بمستوى صدره ، وعندما يجلس يرون الصمت ، ولا يمزق توتر الجدران إلا صوته المجلجل .صامت يستمع بأناة حينما يحتاج الأمر ، ولا يكاد يتوقف عن الحديث أمام الجمهور المستزيد إلا والحشد غير المؤتلف قد تقارب وتقارب رأيا وقناعة. لم يملوا من حفر القنوات الجانبية في طريق جريانه ، وحين انطلاق لسانه، لكنه يبصر حينما تعلو الغشاوة أعين الآخرين ، ويتحرك حينما يتراجع الآخرون ، لايكل لكنه لأحوال الناس يتألم ، وهل من صاحب رأي لا يتألم .

يستل قلمه من غمده ، ويمزق فراغ السحاب فينثر أنجما على ورق البردي وفي وجوه الحاضرين ، يكتب ثم يكتب ثم يعود فيشطب ، يغير كلمة هنا وجملة هناك ، ثم يضيف ويتراجع ثم يقدم ، يُسقط فقرة كاملة ، ويضيف كلمة ، يمُزق صفحة ويكتب ثلاث ، يسأل نفسه وقد يستشير عن أنسب المواضع لكلمة . انه إنسان الكلمة ، والكلمة في زمن التحدي طلقة بل طلقات ، والكلمة في زمن التردي ترياق وبلسم ، والكلمة في زمن الترقب استنهاض واعلام بالصبر ، وهو في طوفان كلماته يجيد العوم ، لا يتعب ولا يتذمر .

ينهل من معين اللغة العربية الذي لا ينضب ، نهر في الحديث هو لا يتوقف عن الجريان ، نبع إيمان ، وهل في صاحب الرسالة إلا الإيمان والإرادة ،الإرادة والفعل ، الكلمة والنتيجة ، الخطة والهدف ، كلمة الحق في مسار البرق.

دخل المكتب مسرعا ، حتى وهو الآن يودع الستين من عمره مازال مسرعا ، يمشي مسرعا ، يفكر بسرعة ، يخطط بسرعة ، وكأنه يسابق شيئا أو يراكم أشياء أو يزرع وينتظر الثمار، دخل إلى المكتب الذي كنت أشغله مسرعا ، سلم على الحضور ، وبعد أن جلس قال لي : (يا بو) ! أي يا أبو– ويتوقف عن التتمة كي لا يتوه بين أسماء الأشخاص الذين يعرفهم وما أكثرهم –ما نوع الحضور في ندوتي غدا؟ لقد كان يمارس الكلام طقسا مقدسا ، كعلم وفن وكأسلوب تعبئة ، ويتعامل مع الحضور كبؤرة استقطاب ، وكمجال تعلم وتعليم . قلت له: إنهم صفوة ونخبة. فلم تعجبه الكلمتان وقال أننا تنظيم طليعي وجماهيري معا بمعنى أننا لا نعترف بالتمايز بين أفراد الشعب فلكل قدرة ولكل طاقة ، ومن كل حسبهما يتحقق العطاء ، لقد كان معلما وما زال لا يترك مجلسا أو اجتماعا أو حتى لقاء فرديا إلا وينهل من كوكب معرفته ليسقي الآخرين إلى حد الارتواء.

لو كان صاحب طريقة صوفية لكثر مريدوه ، ولو كان صاحب زاوية لتزاحم على بابه طلاب العلم ، ولو قبل أن يكون وزيرا لكانوا حوله كما الفراشات ، ولكنه مناضل حمل بندقية وقلما، وثائر في

ثوب مفكر أو مفكر في ثوب ثائر يحمل هما وقلما وألما وارتحالا وبلاغة.

احتفظ بمهابة ارتبطت بطوله وعرضه كما ارتبطت بتقاطيع وجهه، وحمل أنفة وكبرياء من والده ذاك الشيخ الحيفاوي الجليل الذي أورثه إيمان العلماء وجموح الحصان ودهاء الثعلب وشموخ العقاب ، واكتسب حب المعرفة وارادة العطاء وإصرار القندس ، وخدمة الأمة ، وهل لغير ذلك يعيش أصحاب الأفكار الثورية الحرة .

دخل القاعة التي غصت بالحضور ، فدوى الجمع بالتصفيق ، وتكبر الأمة حينما تصفق لعلمائها ، مفكريها، شعرائها، ثوارها، قادتها، وتنحدر حتى تداس بالأقدام فلا يظهر لها لون حينما تصفق لصنائع الآخرين ، ودمى الأمم الأخرى ورسومها المتحركة. حينما نصفق لمفكرينا وأدبائنا وأساتذتنا ننتصر لأنفسنا ضد الاستلاب ، وننتصر لامتنا ضد حملة رايات التغريب ، وننتصر لقدراتنا الذاتية التي يحطمونها فينا. جلس على المنصة ، فلقد كان مدعوا لإلقاء محاضرة أعد لها الاتحاد العام لطلبة فلسطين -فرع الكويت الذي كنت أرأسه ، قدمته! وكيف لي أن أقدم حوتا في بحر لجج، أو إشراقة بعد ليل حالك ، أو إنصافا بعد طول طغيان ، أو مطرا لأرض منتظرة صابرة. إنه يعلن عن نفسه.

لقد تكلم فأسمع ، وتحدث فأسر، وخطب فملك ، وقال فضرب أعناق الرفض والتمرد ، دفن الكائدون في حبال مصائدهم ، وركل

الواهمون في دبر أحلامهم . كنت قد قدمته كقائد ومفكر عروبي ومنظر من قلائل الذين دخلوا الثورة كبارا وظلوا كذلك ، وما بصعوبة على الصغير أن يكبر ولكن العرقلة حين يصغر الكبار ! وهو دخل كبيرا واحتفظ بذلك ، لأنه كما ظل يردد المرء بإخوانه ، لقد كان كبيرا بحب واحترام الآخرين له، وحبه واحترامه للآخرين.

كان يتحدث وكأنه طوفان، لا ينقطع ولا ينفع معه ربوة أو جبل ، تتزاحم فيه الأفكار عند عتبة جمِله، تتصارع تتوالد تتراكض ثم تهبط من عنق عقلها إلى شفتيه بسلاسة الارتواء ، وطلاقة الطيور ، وبلاغة الفصحاء ، حتى لتكاد ترى في عيون الحضور تأملا في ذاته ونظرة فيما وراء كلماته ، ومقارنة بين حركات يديه وربطة عنقه، وتقلبات وجهه، ورنة صوته ، وربطا بأفكاره الثرة المتدافعة المتسارعة. وما أن أدركه الوقت ، وهو فيه من الملتزمين حتى توقف ، فوقف له الجمهور يحييه ختاما كما حياه عند البدء ، ولم يتسنَ لي اختتام ما اختتُم بوقوفه ، ثم انطلاقه مسرعا باتجاه المطار حيث ينتظره مؤتمر عالمي في فرنسا.

عاش الثورة تأسيسا ومسيرة ،مفاصل ومراحل ، إجمالا وتفصيلا ، لقد كان نهما للتفاصيل والأسرار والمعرفة والتقدم والجديد، لا يشبع من الاستزادة ، يسأل، يستفسر ، يقرأ كثيرا ، يدون ، يسجل ، يرتحل ليسأل ويستفسر ويقرأ ويدون ويسجل ثم يتحدث ، وكيف لمثله ألا يأتي بجديد ، انه صاحب فكرة وصاحب رؤيا وصاحب

ياسر عرفات ، وفي غمام الصيف وغيوم الشتاء وفي ظل العواصف والأعاصير تغيب الرؤية ، ويندفع هو مسرعا في مسار البرق ليقدم رؤياه دون اعتبار لعوامل التعرية أو التجوية، بثقة المجاهد و تواضع العلماء.

اكتسب من الهندسة علمية الفكرة، واكتسب من الثورة حركية الفكرة واكتسب من إيمانه ضرورة الفكرة وورث من والده أهمية الفكرة ، واكتسب من الناس هادفية الفكرة ، وأحدث فيه الزمن وسطية الشعلة، فصنع فكرا وخط في لوح الديمومة مسارا ما كان لمثله إلا أن يخطه.

في مكتبه بمدينة غزة بعد عشرين عاما من لقائي الأول به ، كنت طالبا في محراب معلم ، وكادرا في حضرة قائد كنت وما زلت ، فما كان لاختلاف الأمكنة وتغير الدهر وتراجع المراحل ، وكثرة الفواصل ، وعاديات الزمن إلا أن تزيد من حنكته ، وبراعته وسرعته ، انه الرجل الطوفان المسرع في مسار البرق يلتقط الشهب ، ويرسم الطريق ، يفكر مليا وعندما يواجه لا يتوقف.

إنسان المطر

جلس في مواجهة المطر ...يتأمل القطرات المتراكضة همسا لتقبيل أديم الأرض ، رفع سبابته ليقول شيئا ، غصت عليه الكلمات وعصت فيه المناهل وغلقت عليه الأفكار ...فحينما يواجه الإنسان المطر فانه لاشك الخاسر ، فالمواجهة تلتزم بقانون ولا قانون يلزم المطر أن يكف عن السفر والعشق والتقبيل .

جلس في مواجهة الريح ، وما ابتهج ! ولغيره أن يبتهج جالسا في مواجهة الحركة ...تطايرت أفكاره أشلاء ، وتفرقت قصفا في عرض الشارع المقابل لشجرة المشمش في بيت أمه المنثنية كذًا المنتصبة روحا منذ انطلاقة الزهرة الأولى.

كان الرقود قد أصبح هما مستقرا ووجعا لا يمل وفعلا تعسا ، فوقف بصعوبة بادية يمتطي ظهر عصا ، يبحث المطر ويجول بين أرجاء الريح ...عم تبحث وتجول يا ذا القلب الزجاجي ؟إلى ماذا تتطلع يا ذا الفؤاد المنقبض والفكر الماطر ؟ كاد يلمح في عيني السؤال ، وكدت أرى ألفاظا ترتسم على شفتيه ، إلا أن انهمار المطر غطى على صوت أفكار شفتيه الخجولتين.

عندما يجلس (هو) في مواجهة المطر والريح والأرض يتحول دون إذن من أمه ومن شجرة المشمش إلى حفيف ،فلا نحسه إلا مع

طرقات الرعد في أذنيه واستقامة الحروف في صدره،وانقباض القلب الموجوع ، وتحجر ساقيه ويده اليسرى!

رمى إنسان المطر (هو) رمى البهجة في سلة الأمس ومزق قارب النجاة وشمر عن ساعديه واقتبس عمق الألم بين جوانحه فطار دونه الشنار فوق القطرات وبين أعطاف الريح ، فوق الثرى وخلل السماء المبتهجة .

هو لا يحب السماء ، فالبهجة عنوان فقده مع تيه العقل ،وقهر المرض ولؤم الجسد ...في حضرته كدت أغرق في قفر اللحظة ، وأخرج أبيض من كوكب التعب يجمعنا أنا وهو ، ألفت فقدان المطر طويلا في صحراء الخليج ، وألفت افتقاد البهجة طويلا في عمق الوطن ، وأرجعت نفسي إلى حقيقة الوجع النازف في قلبه ...كاد يقتلني بتزاور نظراته عني ، وكاد يثقب رأسي بنظراته الخلفية!وددت لو حملته بهجة لا تموت في قلبي النابت ، وددت لو زرعته وردة في سحابة ماطرة ...يا ليته ما كان بهجة في إنسان القطرة ، إنسان المطر ،ويا ليتني ريحا لا تهدأ ولا تكف عن البهجة.

هو الأول بلا أديم ، وبلا وجه وبلا سماء ، فالأرض رحابة والسماء فضاء دون حدود والفضاء امتداد لوجود والوجود حياة ، وهو أدمن المطر في غيبوبة الأحياء .وجد ضالته قطرة تودع سحابتها في مسار البرق يسافر ، ينتشي ، يضحك ، يملأ السماء بهجة ثم يدخل التابوت .

رسالة إلى صديقي المحلق !

ما كففت يوما عن التأمل في الزمن، في زمن السباق باتجاه الربح، زمن الرمي باتجاه المادة فقط... وقد أكون اعتدت التأمل في مساق الزمن ... زمن قذف الأحلام والآمال والتطلعات في ركام النفايات، في الزبالة!... ولربما أدمنت التأمل في الإجمالي والتفصيل، في الكليات كما في الجزئيات حتى أدق الأمور، ألِفت عدم الكف، والاعتياد بل وإدمان التأمل في الزمن، في حوادث الزمن، في المكان، في الطبيعة ، في الخلق وفي الأشياء وفي الآخرين.

قد ننظر إليهم فنراهم مظهرا جميلا، ولسانا دافئا، وبزة أنيقة، وقد نراهم في مشية سريعة أو بطيئة، أو بسمة لا تفارق وجه صبوح مع رقبة بديعة وقامة معتدلة.. وقد نراهم هما ثقيلا وجبينا عباسا، وقد نعلمهم من طريقة لفظ أو موقف أو حركة حاجب أو أسلوب كتابة أو من شكل إقبالهم أو أدبارهم، وقِفتهم أو جلستهم.. وقد نراهم شخصيات في غير ذلك من كلياتهم أو جزئياتهم... ولكن ألفة اعتياد التأمل لربما وضعت في صاحبها قدرة نفاذ وبصيرة إلى ما تحت الجلود والعظام، وما بعد اللحوم والشحوم، وما وقر في القلب والدماغ، بصيرة ارتفعت عن الماديات والمحسوس إلى ما وراء الطبيعة واللامحسوس.

إن البصيرة روح الشخص ودليله، إنها محصلة مخيلته وذاكرته وحدسه، ما تنفك ترتسم في مقدرته على النفاذ لعقول وأفئدة الآخرين عامة، وأغوار عقول وأفئدة المقربين والأصحاب والاخوة وهم الخاصة.

لقد حبانا الله بشخص ! أو اثنين أو ثلاثة! لا! بل اكثر بكثير.. من المميزين وحدانا، المميزين مثنى وثلاث ورباع، والمميزين جمعا.. لقد منّ الله على الجمع المؤتلف، نحن، بالتكامل ليس شعارا يُكتب على الجدران، أو على الأقمشة والملصقات... أو يدرس بشكل عابر في متون الكتب التنظيمية، بل بوقائع حددت للأشخاص ضمن المجموع أدوارا وقدرات وامكانات مختلفة وأفعالا .... يعيش كل منهم في هذا الدور أو ذاك ويقفز في أتون أي معركة من معارك الحياة فلا ينشق الغبار عنها، إلا وكان فيها من منتصبي القامة رافعي الجباه ... ويعيش ضمن المجموع المختلف المواهب والقدرات والأدوار فلا ترى في مثل هذا النسيج إلا التكامل... لا تفاوت ولا تخالف، لا تصارع ولا تضاد بل حركة منسجمة متجهة طوعا نحو الهدف.. هكذا كنا نحن، وكان منا وضاح.

ولد وضاح شبلا، ما كان عودا ندا ولا قناة غضه، لقد كان صلبا عردا.. تعلم السباحة _منذ الصغر_ في بحر الخوف بشجاعة، تعلم السباحة في ظلمات الحاضر المتذبذب فأجاد، وتعلم السباحة يجتاز العقبة تلو العقبة.. يخترق الصعاب لا يستسلم ولا يهاب، لقد

تعلم القتال فنونا، وضروب النضال، وفنون الصمود... فأتقن فنون القوة ليصبح في زمن القلاع والحصون سدا مشيدا، وصخرة تتكسر عليها كل الرماح.. ولد وضاح جهرا.. فكان يستعيد ماضي شعبه، أمس أمته في مسار أيامه وسني حياته علنا... لقد بزغ فجره أسدا يافعا.

أشعل النار في زمن الانطفاء، أوقد الحطب في زمن الجليد، فكان فجرا طالعا كالحريق.. أضاء، وأضاءوا العتمة، عقد العزم فنفذ، وأراد ففعل، وشاء فاعتدَ وتوكل وعمل فأنجز... دهر طويل ومسلك صعب من الوثبات انتقل فيه من حقل إلى آخر، ومن تجربة صعبة إلى أخرى اصعب من سابقتها... ومن إخفاق إلى نصر، يسجل تجربة فوق أخرى حتى صعد التلة العالية من الفعل الممهد في قمة الأفعال المتراكمة. لقد أنار وأضاء فابهر، لقد أشعل وأوقد فانضج وأثمر... لقد أجدت الصنع أيها النسر المسلح فبارك الله في يديك، لقد أجدت الاختيار فبارك الله في عينيك... عملت، ولما عملت وتواصلت وداومت أراك أكملت وأتقنت... لقد انتشلت منا وانتشلت منه خيوطا ، انتشلت من وجوه الأصدقاء والأقرباء خيوط الفرح و انتشلت من الفجر خيوط الإشراق ، انتشلت من قلوب الأهل والأصحاب خيوط المحبة فصنعت شبكة، نسجت منها -كلها -شبكة من الألق والسعادة... ثم ألقيت بالشبكة على عموم الناس فأزاحت صخورا و حواجزا وجدرانا.. كانت قد أطبقت على الصدور، فتحررت

وانشرحت، هكذا كان الحال في يوم فرحك، فرحنا.. وما كانت صناعة البسمة فيه لتختلف عن طويل تاريخ هو لك صنعت فيه ونسجت. الصانع النساج، انه أنت ثورة حين يتحرك، وبركان يتأهب للثورة حين يسكن، فكر منفتح حين يتفاعل مع الآخرين، وعقل يتسع للاختلافات حين يحاور.. لقد تطور.. لين، أليف حين الحاجة، وفرقة عسكرية مجحفلة حين النجدة ، بركان أليف مجحفل هو، جامع للمتناقضات، منسق للتعارضات،انه متوازن.

لماذا يترك أحدهم الأرض ليعيش محلقا في السماء؟ لماذا يترك أحدهم رجليه ولا يستخدمهما إلا لماما؟ لماذا يشعر أحدهم بأن نصفه السفلي يصارعه دوما لينفذ مهمته الأصلية وهي المشي؟ لماذا؟ لأن عضلات ذراعيه ازدادتا قوة وصلابة في ظل مرونة وحركية أدت بذراعيه لان تقوما بالدور و أي دور؟ ... يتناثر الريش على امتداد الذراعين من الخلف وعلى ظهره يكبر وينمو الريش بقوة حتى يمتد الذراعان باتساع قلبه، وفضاء صدره! لماذا يترك أحدهم رجليه ولا يسير عليهما؟ بكل بساطة لان له جناحين يطير بهما! هذا هو (أنت) يمشي بل ويجد متى ما كان للمسير أن يحقق الهدف.. يطير متى ما كانت المرحلة للتخطيط والتطوير أو رسم الغايات والأهداف.. لذلك لا تستغربوا أن ترونه في غالب الأحيان – فوق رءوسكم تشيرون إليه من بعيد بسباباتكم – محلقا، نسر محلق هو، أسد ثاو هو ولكنه ذهب!

لقد ذهب وضاح، النسر المحلق، كما ذهب طيب القلب ياسر، قيم السيرة ياسر، طيب الذكر ياسر، طيب السجايا ياسر، الدخان المنبثق والشرر المتطاير والحمم المشتعلة حين ينفجر!. الماء السلسبيل، والجدول الرقراق حين يجلس ليتأمل، ليفكر ويتألم بصمت البراكين، ويشخص بعينيه نحو البعيد طامحا لامتلاكه، لقد ذهب ياسر نحو البعيد... أحد كبار المتمردين هو، واحد عشاق الوطن والأنس الجليل... لقد رحل رجل المقاومة، قهر الحصار والمرض والجلطات، والشوق الدائم، ورائحة الوطن، وقهوة الصباح، وألم اللحظة والأفق المحدود، والاستقرار البائس والسعي الناقص ورحل، وحين رحيله، وطأ قلوبنا بقدميه وما بارحها.

لقد ذهب الأسد العرد، وكان قلبه معلق بالنهر يقطعه فيقبل تراب الضفة الأخرى، لقد ذهب الأسد ولم يستطع أن يمشي عبر جسر الخشب ليحتضن الوطن المقدس، ولكنه حلق فلم يترك شبرا في الوطن إلا وطاف حوله وفيه.

لقد ذهب النسر المحلق وما بارح قلوبنا، كما لم يبارحها نبيل مشعل الصراحة، وضجيج الحركة، وثورة العواطف، ورمز الكبرياء وفعل التلاقي بين الازدهار والانطفاء... لقد ذهب الشبل المحلق الأسد والنسر العالي كما ذهب ولم يبارح قلوبنا المسيح نبيل.

هذه رسالتي إلى صديقي الوضاح ذاك، ولو قلت أنها إلى صديقي المحلق ما جانبت الصواب، ولو قلت إنها إلى صديقي

الواضح المرحاب لأصبت الهدف، ولو قلت إنها لذلك المرتسم على وجوه الآخرين ما كذبت.. إنها رسالة إلى صديقي النسر في جماعة النسور، إلى صديقي الصلب الثاوي، المتمرد دوما، الخالي من كوابح التراجع أو التوقف والسائر دوما إلى الأمام ما فكر يوما بالنظر إلى الخلف والتراجع.

١٩٩٩/٢/١٣

ياسر عرفات النجم في سماء الحرية .

سألوه في المؤتمر الصحفي أن يأمر بإيقاف العنف فهب واقفا كالليث ونظر باتجاه الصحفي المنحاز من فضائية السي إن إن وقال وهو يفور غضبا: هل تريدني أن أعامل شعبي كالحيوانات ؟! أنا لا أسمح لك الحديث بمثل هذه اللهجة ... ثم أردف قائلا أن شارون هو الذي سبب العنف بزيارته الاستفزازية للحرم القدسي الشريف ، كان هذا مقطعا من رد الرئيس ياسر عرفات في واشنطن قبل أيام خلال زيارته تلك بدعوة من الرئيس الأمريكي(كلنتون) ... لم يفوت

الفرصة ولطم الانحياز الإعلامي الأمريكي ووضع الأمور في نصابها ، لقد كان وما يزال نجما في سماء الوطن .

عندما ذهب إلى (كامب ديفد) قالوا أنه باع القضية، وبدأوا يشحذون أسلحتهم ولما طالت مدة المفاوضات قالوا : إن الرئيس (كلنتون) سيضغط عليه ويستسلم، ينهزم ...تشككوا، حللوا، اتهموا... فهم لا يريدونه إلا كما يتصور خيالهم المريض... لقد كان كالعادة فأفشل أحلام اليقظة للمناضلين الموسميين، والمحللين التائهين والسياسيين الأكاذيب فصعقوا جميعا، وما حسبوه سيقف عملاقا أمام كلنتون الدولة العظمى !! ولكنه رجل القضية العظيمة والمواقف العظيمة فكيف كان بظنهم سيتصرف؟

ولما ذهب إلى باريس ظنوا فيها فرصة لنكأ الجرح الفلسطيني النازف أبدأ وقالوا ان مسلسل التنازلات سيستمر فعادوا بالخيبة وهكذا مع كل تحرك للأخ الرئيس ياسر عرفات. انه الرجل المفاجأة الرجل الذي يستعصي على التجاوز، رجل المصير.

ذكره يتردد دوما ومنذ سنوات طوال، لا يخبوا اسمه، بل يزداد لمعانا ، ويزداد تألقا ...عندما عقد العزم على تفجير الثورة ضاربا بعرض الحائط حسابات البيدر قالوا عنه مجنون، وعندما رفض السيطرة على الثورة الوليدة سجنوه في سوريا وتخاذل لنصرته عدد من زملائه فقبعوا في زوايا التاريخ، ولما اشتد عود الثورة انطلقت رصاصة مدوية عام ١٩٦٥ اتهموه واتهموا (فتح) واتهموا الثورة بالعمالة للأعداء، وبالتوريط للعرب، وبالتفريط بالقضية ووحدة الأمة، وبسوء التوقيت للانطلاقة بعيدا عن التنسيق العربي المفقود.

وكلما كان ينسج خطوة متقدما أم متراجعا كانت تحيط به الشكوك والاتهامات ويتحلق حوله الخلّص والفاسدون، وينظر له أولئك المناضلون الموسميون الذين يؤثرون السكون والسلامة أو الترقب والتعليق أو ركوب أمواج السياسة نظرة حقد ونظرة حسد ونظرة غيرة منه ويتمنون له ما يتمنون لأعدائهم... لقد قاسموه وحركة (فتح) نصر الكرامة واتهموه، ونازعوه هدف تكريس القاعدة الآمنة فدمروها وأخرجوه من حفرة إلى حفرة... يسيئون له فيسامح

ويتهمونه فيترفع، عشرات آلاف العمليات انطلقت معلنة الكفاح المسلح وهم يتفرجون وهو الوحيد الشامخ كالطود لا تهزه الريح.

كلهم اهتزّوا، خافوا، تعبوا، ذووا وذبلوا، تراجعوا ، تساقطوا وكان هو يظل صامدا مقداما يضع نصب عينيه مصلحة الأمة وفلسطين، يسير بين الأشواك والمعادلات الصعبة،بين المتطرفين المغالين يشدونه لأقصى اليسار ، وبين المنبطحين المتآمرين يشدونه لينقلب على وجهه ، وهو في الوسط أبدا واقف، يمتلك الرؤية ويحسب معادلات السيطرة والقوى ويسير بين الألغام ممسكا ببوصلة تشير دوما نحو فلسطين، لقد كان نجما في سماء الوطن ، نجما في سماء الحرية.

اتهموه، وشككوا به في مرحلة الحصاد والتسوية وما كان ذلك بجديد وإنما اجترار لقديم ... فقد اتهموه وهو في أوج قوة الثورة، وعنفوان (فتح) فقالوا بالقيادة اليمينية والقيادة المتنفذة والمنبوذ، واتهمه العرب بممالأة الشيوعيين وتحريض اليسار، وتصدير الثورة لشعوبهم ... تنفسوا الصعداء مرتين الأولى : عندما

خرج من عمان والثانية : عندما خرج من بيروت ، لم يكتفوا بمطالبته الانتحار بل اجتاحوه بالانشقاق وحاولوا تدمير صورة البطل المنتصر الذي كان هو وما يزال، وفي الثالثة : ظنوا أن يذبح في تونس فارتدوا خائبين.

كان بطل الحرب ولم يحارب افتتانا بالحرب أو حبا باللون الأحمر، وإنما لهدف السلام.. قالت فتح بالدولة الفلسطينية الديمقراطية منذ التأسيس في الخمسينات وما زال الشعار صالحا في الألفين ، وفي الاستقلال هدف لانتزاع الدولة والقدس وعودة اللاجئين... رسم السبل وحدد الأهداف ، فكان للثورة أطوارا وأشكالا ومراحل تتغير وتتبدل ولكنها تتواصل أبدا ولا تتوقف.

انه بطل صنع الحدث لا يتوانى عن التقدم والمخاطرة ما دام هناك شبل فلسطيني أو زهرة يعملان لرفع علم فلسطين فوق أسوار القدس.

خاض مجازفة الحرب بإعلان الثورة، وخاض مجازفة التسوية بالدخول في مسار (مدريد – أوسلو) ، ولم يسلم من منتقديه

يشككون ويتهمون ويخرصون... يتأزمون كلما حقق نصرا ويلومون أنفسهم على التقصير في السماح له بالنصر، ويفرحون كلما ظنوا انه تعثر، يلومونه ويشهرون به ... تكاثف ذلك منذ اتفاقيات المرحلة الانتقالية... كانوا يخلون إلى شياطينهم ويقولون انظروا انه ينحدر في مسيرة التسوية انه...؟!.

لمع نجمه منذ مشاركته في رابطة الطلبة ثم في حرب القنال و صار رمزا في معركة الكرامة، وقاد الكفاح المسلح، وكان الصمود في بيروت، وعملق صمود المخيمات، وانتزع القرار الوطني المستقل، فما كان من الكيانية الفلسطينية إلا أن برزت ، وطاف العالم يحمل البندقية وغصن الزيتون حتى في أروقة الأمم المتحدة.

هل نستطيع حصر مئات المبادرات والتحركات واللفتات والأزمات والكبوات والنجاحات والانتصارات التي صنعت من (الختيار) رجلا صعبا، رجلا لا يقبل بسهولة، رجلا حريصا رجلا لا يمكن تجاوزه. قد يناور أو يتكتك أو يميل وينحني ولكنه لا يتراجع، وعلى القضية الأساسية لا يساوم، انه رجل المقاومة والصمود...

مهما تعاظم حقد الحاقدين وكثرت أمنيات المحنطين بأن يزّل ويسقط ويفِر... وهو دوما يقف ويكرّ .

حسدوه يتسلم جائزة نوبل للسلام، وفرحوا لسقوطه كما ظنوا في فخ التفريط بالقضية والشعب ... فتعجبوا لفوزه بانتخابات حرة نزيهة في فلسطين، وظلوا يعودون إلى شياطينهم ويشككون و يتهمون... لقد قرر تجاوز المرحلة الانتقالية بثبات الأهداف في المرحلة النهائية فما صدقوه وهم منذ البدء كذلك !! فوقف غير هياب في وجه أقوى دولة في العالم الولايات المتحدة ، وقال: لا . وكلما ذهب يفاوض يهاجموه ويتوقعون له الاستسلام ثم يعودوا ليبهتوا.

كم من المرات التي يجب أن تسجل فيها نقاط لصالح الختيار، ياسر عرفات ليخلع المرجفون مسامير الشك من عقولهم، وكم من المرات التي يجب أن يلطمهم فيها بصموده ووطنيته وقوميته ونضاليته لينتعلوا أحذية النضال معه، وكم من النقاط التي يجب ان يسجلها بعد سبعين عاما لينتزعوا شكوكهم ويألفوا (الثقة) و (المحبة) ويكرسوا جهودهم في المسار لا خارجه؟!.

غَــــدُك أفضل *.

نسيجٌ مُهدى إلى الأخ ياسر عرفات رئيس دولة فلسطين .

نظروا إليك مبهورين
ونظروا إليك مقهورين
ومالوا عنك غابرين
نظروك تقاتل
تقاوم
تفاوض
تصارع
فتعجبوا وربما أشفقوا
خافوا إلى حد الذعر وما تمنوا
أن يكونوك
كونوا ما تشاؤون أو يُشاء لكم
فلن تكونوه .
فمِسْك النصر مع وَقِيْد المعركة
وسراج النور في الظلمة يقوم
(٢)
حمل المسيرة كتفا إلى كتف
واعتنق الكفاح على مقاعد الدرس .

الختيار
حمل القوارير والنار
وترك انفلات الصبا
ورعونة الأنفاس
وملمس الحرير
حمل قوارير المسك والنار ومَرّ
واعتنق الوجيعة والصمت
ترك الماضي ليَصنَعَ
وتجاوز اللجوء ليرفَعَ
وترك العصا
صنع من المستحيل المُرّ غداً
ورفع من جوف الجدب ثورة
ولم يتكئْ إلا على شعب
شعب الأخيار والجبارين .
(٣)
أصحاب الجلالة والسمو والفخامة حسدوك
هل على صرح منيف وشراب بارد وخِدر
أم على سلطان فسيح وسطوة وطنافس
أم على حرير وذهب ورياش
أم حسدوك على ما لا يملكون !

حيث الشجاعة والقواقع والحكمة والحب
وحيث الفينيق والسهر والسماء والناس .
هل تراهم يحمحمون !
(٤)
يا حامل المسك والنار
وعباءة المارد والسر الكبير
هل وقفت يوما تتفرسهم
هل تأملت يوما أياديهم المبتورة
وهل تألمت يوما جفوة ألسنتهم
وهل نظروا إليك يوما دون رَهَقٍ أو انكسار
دعهم يميلون ...فغدُك أفضل
وغدهم قد باعوه
وسِرّك لن يدركوه
ونار الختيار ذَهَبٌ .
(٥)
يا صاحب المسك والدروب
في كل جادة ونهج وطريق سلكت
وفي كل قلب وحسام وميدان ولآلئٍ وسرايا وأحلام وجبال خطرت
في كل المراحل والمشاعل والروائح والنقوش مررت
ترش المسك على فلسطين وتشعل نار التاريخ

رجل الله
واللغات
والعبرات
والقدرات والثورات
والقدس والتراب
أنت يا قائدي
لا داعي للعجلة
ففي عليائك الأمس كانوا يذوبون
وفي حصارك اليوم يحاصرون أرواحهم
سيتساقطون
عبر العَواصم يتساقطون
وعبر الدروب يتوهون
فهم سيكونون ما يكونون
ولكن غَدُهُم يا ختيار قد باعوه
ونصرُك قادم
لأن غدَك أفضل
غدنا أفضل .

رام الله ١/٢/٢٠٠٢ .

ترانيم الفحل الغائب !

على نفس الطاولة وفي نفس الحديقة الخلفية للمنزل ، وأخاله في نفس اليوم وإن في سنة حريق ، بين أحضان ولع القلوب وفي حضرة مراكب العشق الغادي وتأملات الروح الواجدة ...تحلقنا ، واجمين صامتين .

كان الجو باردا والعدد ناقصا والأرواح هائمة ! مهما عددت كانت المعادلة مكسورة والمشكلة عصية والبرودة طاغية .

قال الجالس على جادة الأفق : ما لكم صامتين لا تقوون حتى على الشهيق ؟ فلم يسمع ردا عليه إلا صوت الهوام .

وقال القادم من طريق الغرق : أظنني افتقدت حاسة الشم ! أم أن رائحة القهوة دون معنى ، هذا اليوم ؟!

ألقت نقرات الخشب ينابيعها الكبريتية في نهر المراكب وحملت صمتها !

التقط خمر الأكباد عشاق الهمسات وصب في الآذان –بعد دهر أو هكذا تهيأ لنا – بعضا من ترانيم الفحل الغائب و وشوشاته الساخنة عبر الدروب ، وشيئا من عثرات الكلام ، فضج المرابطون وانخرق الصمت .. فأضاف للفناجين قليلا من السكر .

في نفس المكان حيث كنا نتعلم فن الإصغاء لصوت الليل الحبيس ، ولصوت خطوات الأقدام الحافية ، واحتدام الأنفاس حين تقابل الغزلان .

وتحت نفس الليمونة المغبرة بصخب الضياء وعتمة البعث أين كنا نتعلم تحسس ثنايا المشاعر و إرسال بروق الربيع عبر أناشيد الحدقات.. اكتشفنا افتقاد المرايا و مدى لذة ترانيم الفحل ، حيث لم يكن في الصامتين الملتفين حول الطاولة توفيق .

الباشا سجادة اللظى وشكوى الأرواح الحبيسة في قمقم العتمة ، الممتليء فخرا واشتعالا وتدفقا كان غائبا عن الليمونة والطاولة والمكان والأكباد والأرواح ، كان العدد ناقصا فلا شهيق ولا إحساس ولا انفراج للفحل في شق النور المتدلي من سماء الأمنيات ... لقد غابت الترانيم ؟!

توفيق رخام العيون وقلم القلوب السيال ، المرح دوما المتوتر أبدا المشحون كثيرا المتألم رفقا . أسقط العشق كثيرا من المعادلة ... حيث أمسى الطرح سيد العتمة عندما خلف وراء ظهره انهمار المطر تحت الجباه ، وانقباض العيون وحزن الأكباد وتفتت الأرواح .

هو عجينة الكنافة و بتلات الزهور و غمزات الأطياف في وقيد التخايا وعجاج السنين ... لم يكن جالسا ولم يكن واقفا ولم نكن له بالانتظار ولم يكن قاعدا على أي من المقاعد الملتفة حول الطاولة القبر اليوم ؟!

لقد ثار الفحل على رسائلنا المكدسة في بريد الأمنيات فحطم تأملات الروح والأحلام النهارية. وانفجار الينابيع ورغبات الإصغاء والوشوشات و التمع هناك وحيدا حيث الرمضاء تقهر الأيام والأحلام والعيون .

نمد أيدينا نحن المرابطون تحت الشجرة ، ندعوك متضرعين :

ألا تفارق مراكب العشق

وألا تنبذ ترانيم الأمس ورفقة الغزلان

وألا تهمل الصهيل في مرايا القمر

وألا تقذف بالأوراق في بحر المراكب وعتمة الليل

أيها الكوكب الراقد على الحطب الملتهب

عاصفة المسار

غبار المعارك الفضية

مدار الكواكب

مخدة القمر

لحمة الفقير

نرجوك وقلما رجونا أحدا :

أن تعيد فينا ثانية ترانيم الفحل الغائب قبل اعتلاء الشمس .

لماذا تبتعد؟ *

في الشقة التي يقطنها في موقع قصر الصنوبر الجزائري في سيدي فرج ، وقف ببدلته السفاري ارتداها منذ عهد الثورة الأول ولم ينـــزعها حتى الآن ،يسلم بيد ممدودة مرحبة ولكن قوية على الأحد عشر شخصا المجهولين القادمين من البعيد ،يشد على يد كل منهم :أهلا وسهلا !لا تفارق محياه الابتسامة المحيرة التي تنفرج فيها شفتاه عن أسنان حسنة الرصف ، تلك الابتسامة التي لم يستطع أن يخفيها مهما ادلهمت من حوله الخطوب وقطبت من حوله الجباه وازداد في محيطه وقع النوازل ،ومهما تكدرت نفسه أو توترت روحه أو تذبذبت أفكاره.

خطا عدة خطوات إلى داخل الصالة وجلس في الزاوية، وأدركته لاحقا يحب الزوايا ،ففي مكتبه يجلس في الزاوية ، يحتضنه كرسي مستقل.لماذا ؟لماذا لا تجلس في مقدمة الركب ؟ لماذا تنـــزوي ؟لماذا تترك الأريكة الفسيحة وتلوذ بحصنك الصغير؟وأنت الفارس المسلح بسيف الرحابة يحطم ضيق الزوايا واتكاء المترفين ،وأسر أمان الحصون .لماذا لا تفتح باب القلعة في الخارج وتنطلق . إن الهواء في الداخل رغم الربو يستحق التنسم.

خطا عدة خطوات ،جلس ، في مقعد صغير في الزاوية اليسرى من الباب :أريد أن أسمع ،تفضلوا.تكلم الجمع المتكلف فاقتصد ،وتحدث

الحضور فتحفظوا وما كنت منهم بالمتكلف ولا المقتصد.شاب صغير لم يتجاوز السادسة والعشرين في حضرة قائد،معلم ،قدوة،كانت رؤيته وأمثاله بحد ذاتها أمنية .وها هي تتحقق .

انطلقت الكلمات من فمي براحة وطمأنينة لم أحسها مع آخرين من نظرائه لكنه رجل الاستيعاب ،رجل التفتح ،رجل الرعاية ،رجل التقبل ،هكذا بدا لي في العام ١٩٨٧.

لم أترك صغيرة أو كبيرة إلا وطرقتها ،عددت السلبيات وفردت الأخطاء ونشرت الخطايا ظانا أنني أبو فراس الحمداني في ميدان الوغى يجندل الأعداء هنا وهناك ،وهو ما زال يبتسم !لماذا تبتسم ؟وأنا في أعلى درجات الجدية ؟لماذا تبتسم وأنا في حدة الشباب أرتجف ! الوجوه من حولي متصحرة لا ماء فيها ولا زرع ،وهو ما زال يبتسم ،لقد وشت عيناه بما لم تنطق به شفتاه :كان يشفق!نعم كان يشفق علي وعلى الآخرين من قلة تجربتنا ،من اندفاع السنين ،من عنفوان الإقبال ،من أفعال التفضيل وصيغ المبالغة.،مما سيرونه ومن القادم ومما هو أسوأ، ومما لا يعرفون ويدركه هو.

فتح أحد الحضور فاه قصد إيقافي عن الحديث الذي أساءه رافضا تشريحي للوضع التنظيمي ، سد (هو) عليه الطريق وأشار إلي أن تابع !ومن أين لي بهذه الفرصة !فما تركته لا يذكر مقابل ما قلته .يضع ذراعا فوق الأخرى وينصت ،يطرق أحيانا ،ويحدق أحيانا ،يسرح أحيانا ويستعيد ابتسامته .لقد كان وأخاله مازال أستاذا في

حسن الاستماع ،أستاذا في قدرة التواصل ، أستاذا في التحريض والتحفيز والتوجيه ، باختصار أستاذ في القيادة.

قال أشياء وأشياء ،أقلَ فأجاد، حام في سماء الفكر ، ونهل من نبع الحكمة فلم يبخل،قال أشياء لم أفهمها إلا بعد سنوات وأنا على أعتاب الأربعين.سلمت عليه والجمع غير المؤتلف وخرجنا إلى جلسات المجلس الوطني الفلسطيني لتمر سنوات قليلة فاجلس بقربه على الأريكة الجلدية السوداء الطويلة في مكتبه الفسيح المتواضع .

شديد حين يغضب ولكنه وان أطال الفجوة عفو، صعب حين يشعر بالاختراق ولكنه متسامح .مازال جالسا في زاويته وان كان استبدل الأريكة في الركن الأيمن في مواجهة الباب بمقعد دوار وراء طاولة مكتب في زاوية أكثر انحسارا في زاوية من زوايا مكتبه .

إنه رجل الوصول السلس ،وكيف لا وهو في زاويته لا يؤمن بالأسوار ، والحوائط،كما لا يعترف بالمظهر الخداع أو البزة المتأنقة أو الكلمات الفخمة والأفكار الصدئة .تجده عندما تريده،لا تأجيل ولا تسويف ولا ارتحال أو سفر دون داع ،لا ادعاء بالانشغال ولا تهرب .إنه رجل القدرة على المواجهة مع كل الأنماط والفئات والشخوص ،لذلك يسهل الوصول إليه ،ولا يسهل النفاذ إلى غاياته ومراميه وحقائق نفسه ولون أفكاره.ولكن كل من يدق بابه يجد جوابا ما ،قد لا يعجبه ولكنه يجده.

اتصل بي عبر الهاتف الداخلي ،فجلست ارتشف معه الشاي في عرينه الواقع أول نهج المتنبي في المنـــزه السابع بتونس العاصمة شكا مر الشكوى وما كان لمثله أن يشكو وهو ممن ومما شكا أحد صناع الحدث ،وأبرز صناع الرمز،بسط المواضيع وعرض الحقائق وحلل الظروف ،تسلسل وتمنطق،ولكنه شكا ،إنها قضية شعب وقضية أمة فكيف لا يفعل ؟أفاض والمكتب كان قد امتلأ بالأخوة الأعزاء من فريق العمل المختار المتميز والمتفاني فريق مكتب التعبئة والتنظيم

سُدت أمام الحضور وأمامي المنافذ !وواصل حتى كدت أظن أن لا منجاة بعد اليوم !!ثم استعاد المفقود وهدوء النفس ورحابة الآمال وسعة الغد ففرد الحل وعدد البدائل ،فتشقق جليد روحي وفتحت الأبواب وبدا الطريق نهجا مرسوما،وصمَت.

(وهم يدعون بأن صمتك قد توغل في الغياب ،أو هكذا يتصورون، وأنا أفسر صمتك العالي المباح ، فليعمهوا في ظلمهم وليهربوا نحو احتدا مات التحير والضياع ، وليغرقوا في الموت في بحر الوساوس والظنون،وأنا وأنت تابع الشوط الطويل)(١) انفض المجلس ، وتشابك النسيج ،وعاد هو إلى زاويته، أما آن لك أن تبتسم ثانية وتقترب.؟!

* كتبت في ٢٠٠٠/٢/١١، بمناسبة يوم ميلاد الأخ أبو ماهر محمد غنيم. و (١)من قصيدة للشاعر رجي محمود.

النمر يقفز في محيط ما يشاء.

رغبت مرارا في صب جام غضبي عليك، في تحميلك كل ذنوب العالم، في التفنن في إيذائك، في اعتصارك حتى الفناء، في أن أوسعك ضربا حتى لا تبين لك ملامح طالما وددت طرحك أرضا، تكتيفك، ربطك إلى مقعدك سريرك، ومنعك من الحركة، من الكلام، من القفز! كنت عصفورا لطيفا جميلا، صوتا مغردا صارخا في بستان لم تكن أزهاره لتتفتح بدونك، وربما كانت فيه لا تتفتح إلا لك، جيش بأكمله أنت حين تضرب، حين تعزِم، حين تصمم... فأر رعديد مذعور أنت حين تقع في جليب يأسك، وقعر انحطاطك، ودونية ارتدادك، وفي محيط لججك وخاصة عندما تقفز!.

يا ليتك هذا العصفور كائن بلا جناحين، بلا ريش، بلا ذيل، بلا زغب، لبقيت أبكي تحت قدميك دهرا بأكمله.. وانتحب حتى لا تردني خائبا مجررا لأذيال الهزيمة، يا ليتك هذا العصفور لا تفكر إلا باتجاه واحد، لا تستطعم للبدائل والاحتمالات والسفر إلى البعيد ، ولا تستلذ إلا في البقاء... البقاء في بستان العشق، البقاء في القلب المنتحب منذ فارقت، البقاء في حيز التشبع يجمعنا... نمر أنت حتى لا يسبقك أحد، نمر أنت حتى لا يرتفع أحد قبلك، نمر أنت حتى لا يتخطاك أحد.

كيف تتحول الحديقة المزهرة المليئة بالورود والرياحين إلى خراب ويباب بين ليلة وضحاها؟ كيف تنقلب الأرض الغضة الثرية الريانة إلى ارض قاحلة فقيرة جدباء؟ كيف يتحول الاخضرار إلى يبوسة والإزهار إلى قفر؟ فيك الثراء والاخضرار، ومنك الإزهار والارتواء، فيك لا مكان للقفر والجدب ومنك لا خراب يصدر ولا يباب.

حزم أمره... قد يكون فكر مليا، وتأمل كثيرا، وجال في متاهات عدة، وحطم باب صمته، واعتلى كرسيا فوضع رجله اليسرى على حافة النافذة ثم ألحقها بالرجل الثانية، اصبح في مواجهة الخارج وألقى من وراء ظهره بدموع الفجر، وعرق النهار، وسهر الليالي، جفاء الوطن، وصدود الأهل، وارتداد أهل المغازي، وانشداد الناس إلى اللهو والمعازف...ألقى بالوهن والضعف، والذبحة الصدرية فاجأته لمرتين واندفع بصدره إلى الأمام، قفز من نافذة الأمس اليابس إلى فجر الزمن القادم في فضاء السعة والرحابة.

تشجع، فها أنت قد اخترت وها أنت تسقط في محيط أحلامك، كالرصاصة، كالثقل المندفع إلى قعر المحيط، كالمصعد افلت من خيوطه الفولاذية، كالنسر للتو نسي أن له جناحين ،أو كالنمر ظن مصادفة انه قد اصبح نسرا ولكن هيهات وهيهات....ما زلت تسقط في محيط آمالك المجردة، المخبوءة ما بين متاهات تلافيف ذهنك... لا

أبعاد للسقوط فالزوال حد السقوط، والغناء حد الوقوع... وأنت والفناء في الآخرين كأنهما جبِلة واحدة.

انقلب في هواءِ سقطته فأصبح رأسه إلى اسفل ورجلاه إلى أعلى كمتمرس يقفز في الماء، وفي الطريق كان يجاوره قطيع من الأغنام لم تتوقف عن الثغاء، وسرب من طيور النورس تزعق في أذنيه، وكان بائع الجرائد على زاوية الشارع في البناية التي يسكن أحد شققها يصيح :الحياة، الأيام، القدس ! وظن انه يرى بعينيه المقاومتين لتيارات الهواء مجموعة من طالبات مدرسة العائشية ينشدن: فدائي، فدائي.. ومدرِستهن طفلة لم تتجاوز الخامسة سنا، ولكن المشيب قد خط شعرها، واحني ظهرها، وبرزت العروق في ظاهر كفيها، وتضغن جبينها ورسمت عقدة ما بين حاجبيها الهلاليين، وصقّرت عينيها ... أهملته قافزا! حلا أهملته قافزا.

بائع الفول وبائع الكعك وبائع العصير، الثلاثة معا القوا عليه تحية الصباح فأدرك انه يقفز صباحا.. لقد كان يحب الصباح حتى الصباح فأسمى ابنته ذات الحاجبين الهلاليين به، وكره الليل فلم يطق أن يستلذ فيه نوما فعاشه ساهرا.

اعتدل في سقطته ... لقد كان نسيم الصباح المشبع بالعبير الطيب للأرض الطيبة يخترق كامل خلايا جسده حتى كأنه قد تحول لأنف ذو يدين ورجلين ورأس وصدر وبطن... فكانت رائحة الخبز والقهوة والزعتر والزيت والنوار وصهيل الخيل والدخان والفحم

والفل تكاد تملأه بالبهجة وهو يجاور النوارس والباعة وطالبات المدرسة العائشية ،انه النمر القافز.

ألقى بجسده من النافذة، واسقط من حساباته الربح والخسارة كما اسقط الخبث والدناءة وهي مما لم يُعرف به، أسقط منطق السبب والنتيجة، أسقط وهم الواقع المفترض، أسقط لذة البقاء الموهوم،أسقط حزن السنين وهم الأيام، وطعنات الرفيق، وقلوب الأحباب، أسقط المنطق وقتل العذاب، وأسقط الفرح الطفولي والحبور الناشئ أسقط أوراقه ، وداس على دفاتره، ألقى بجميع ملاحظاته، ومزق جميع أفكاره، وأطارها في فضائه الحر اللامحدود، الواسع، غير المشدود الممدود، الموعود، غير المردود.

كانت النافذة زلقة، فزلت قدمه وسقط دون أن يحسب لذلك حسابا.. امتشق صهوة الهواء وطار يتنقل عبر الفيافي والفتنة والأزهار. كانت النافذة مكسورة، حاول أن يصلحها فسقط في غفلة من هبة ريح عاتية، عصت أمر ربها فركب رأسها فألقته من سمائه العالي وطرحته.

كان يمسح زجاج النافذة المغبر من الخارج، واقفا على حافتها ومتشبثا بأحد أطرافها.. أفلتت يده، فسقطت قطعة القماش من يده الأخرى... فكان رأسه أول من بادر في الخروج من أزمة الاستقرار إلى فضاء اللامعرف.انتفض في الجو كقبرة خرجت للتو من رحلة بحث، تبكي محزونة على ضياع فراخها.. فقدت البيت،

الوطن، اثر مطر منهمر. أدرك بحسه المرهف، وعواطفه الجياشة أن البعيد_ ذاك الساعي للوصول إليه _قد يصبح أبعد مما يتصور لو تواصل في فضاء اللامعرف، فاعتدل وجلس مفكرا بأناة.

بعد أن يقفز الشخص، فلا فائدة من الغضب أو الإيذاء أو التذنيب أو التربيط أو التكتيف أو الضرب... فلقد حصل ما حصل ووقع القفز؟!ويصبح الأمر أن يكون القفز في الدائرة المطلوبة، في المربع المحدد، في المعرف، في المتوقع، في المأمول، في المحمول.. في المرغوب. وددت أن تتقن ذلك! وعليك إذن أن (لا تتبع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا، وأطاع هواه، وكان أمره فُرطا) واقفز ما شئت والى ما شئت، وكيفما شئت نمرا كنت أو نسرا أو حتى نعجة في قطيع!!

عمّان في ١٩٩٩/٣/٢٢

الجزء الثالث

أجبني ، هل تسمعني ؟

ليس لي إلا أنت ... هل ما زلت تتحملني ؟!
لك أبث أحزاني ،ومنك لا أخاف الشكوى ...
إليك لا أمل الرجوع : فهل ما زلت تتحملني ؟!
إنني أخاطبك ، هل تسمعني ؟أم صممت أذنيك عن سماع نحيبي ؟
هل اقدم كما كان دأبي على امتطائك ،وأنت هاش باش ،فرح جزل ،تداعبني وألاعبك ،هل ما زلت تتحملني ؟
لقد ضقت وتقزمت وصغرت حتى لتسير الركبان من حولي دون أن تراني .!
لقد ضقت وصغرت حتى أصبحت في اكبر الأحلام والأماني تفاهات في تفاهات .
هل تنصت إلى أم مللتني امتطيك ؟
دعني لا اقبل إلا هدوءك وصمتك .صبرك وجلدك ،ولكن إلا تريحني وتسمعني !
نعم ،لم يعد لي سواك صدرا بحرا محيطا .. أجبني هل تسمعني ؟

فار التنور ،وفى صدري تكومت كل الصلبان ،حتى احترقت منى الأنسجة والخلايا وتفحمت .

في قلبي وأطراف ما تبقى من شعري أو في إصبع رجلي الصغير تجمعت بقايا مشاعر دون خياشيم .

حب ومودة وحنين وميساء وسميه وأمان ...

أرجوك لا ترهقني وأجبني !؟

هل إلى ما انفككت تصغي كما كانت حالتك في الماضي .

إن شئت الوصل فتحملني بين ثناياك ،ولا تبخل على الكلمة ؟!!

أرجوك ،أجبني أيها القلم هل تسمعني ؟؟!!

عمان في ٢٠ /١١/ ١٩٩٥

لـــــين على لـــــين .

نظر في عيني روحِه المتحفزة ،إنه الولِه للتوِ فارقته حبيبته ،على العشب الأخضر ما زال منبطحا ، يتحسس بنشوة طفولية عبق مبسمها على وجنته اليمنى ...

استحضر الروح المقمقمة فانفلتت ورسم لهما صورة قال فيها :

لايفتح عينيه عشِقا

لا يفتح جفنيه خوفا
يغلقهما جزِعا
كيلا يفقد أُنس اللحظة
يغمض رمشيه رِفقا
يوسدِ بينهما نغمَ اللفتات
هلالين متقابلين
على نصف وجهه الأيمن رَسمت
بطعم التوت البرى
بذكاوة المشمش الحموي هما .
يمررُ أصابعه بخفة
متتبعا الأثرَ الأحمر
يتلمظُ طعم شفاه دافئة
رطبة ندية غامرة
طبعتهما أثرا لا يزول
هلالين حانيين على وجع أمسه
على همس البديع ورجع السنونو
يطبق جفنيه لين على لين.

أين أنت ؟!

أين أنت ؟لماذا لم تنصحني ؟لماذا سكبت الزيت الحار فوق روحي ؟ . أيفرحك ما ترى وتسمع !؟هل تراني بغيضا لدرجة لهوك في مصير حياتي ؟ إني أراك بعيني رأسي ،نعم ! أراك ،تضحك عاليا :تجلس على سريرك متربعا تغرف من نبع الأزل، تسقى كل ريان ،تخاطب الهدهد وتنثر الكلمات لكل راغب ونافر،أيبهجك أن تراني مفتت الفؤاد، منكمش الدنيا حتى يتسع منقار الدوري لرماد ذاكرتي ،بل واكثر من كل دنياي !ما زلت تحدجنى بنظراتك المعتذرة !هل أسمعك تقول :آسف ؟! ارفع صوتك ولا تبخل علىَ ،وانثر على جسدي صدق حديثك وجوهر كلامك ،لا تريد أن تفعل ،أم انك لا تستطيع ،أجبني !!

هو : (ما زال متربعا فوق سريره) أنا الوجع الكبير ،وأنا الكرم الأبدي، لا يعرفه إلا الواهبون .

أنا : (مستغربا) وكيف يستقيم الوجع مع الكرم يا...؟

هو : إن الكريم لا يتراجع ،يُقدِم مهرولا لا ينتظر بل يسبق مصيره يمشى بيدين فارغتين لا يقبض على شئ،يناطح الرعد وصخرة الرثاء الملساء ويقلق إذا بات فرحا، يبتئس إذا لم يمنح البهجة ،انه يتوجع ويعطى ،يتألم لا تقطر عيناه

الدمع ،حياته للآخرين الذين قلما يفهمون عميق زهده وشكل كرمه فيحرمونه حتى كلمات المحبة و الرثاء ،ويتركونه يتوجع، لهذا أنا الوجع الكبير وأنا الكرم الأبدي لا يستلذ به إلا الواهبون،في الليل والنهار ، في الريبة وحين اليقين ،في هدأة اليمام المضطرب ،وفى أيام التشريق ، في الرملة وذات الصواري . قال كل ذلك ولم ينبس ببنت شفه ،لقد أغلق فاهُ في وجهي ،اسمعه جيدا ولكنه لا يتكلم ؟!

أنا : ليت شفتيك تنفرج قليلا ؟!

هو : لقد سمعت وعقلت ، فلا أسف ولا شفاه ؟

كان الحوار معه يشقيني ،انظر في مقلتيه فيرويني حتى لا أعود في حاجة للانبعاث ثانية من أطراف الحلمتين الشبقتين ،وحتى يخُيل لي أن الحياة التباس ، أشك في الوجود هدفا، وأشكو فيه غزالة ، اقترب منها واهبا فتبتعد ، أفاوضها فتحلم أن تطلق النار في رئتي، وتستبيح صحراء صدري ،تجز العشب الأخضر وتلقى بجثتي في جُب يوسف ؟!

أنا : من أنت ؟ وما الذي دفع بك في غياهب الجب ؟

هو:يوسف ،أسمى يوسف ؟!

أنا : الزمان والمكان كله يعرفك ، وأنا عنك تائه حائر تعِس

هو : كن لغيرك ولا تكن ماضيا ،كن كثيرا ولا تقبل القسمة ، انبعث

مؤمنا ولا تبتئس .

أنا: (انظر إليه يخرج من البئر ،وأنا فيه ما زلت أرتعد) هل من سبيل للخروج ؟هل من طاقة نقفز منها فنكثر ونتقدم ولا نبتئس؟

كان أسامة يحب صاحبته !!وكانت هي لا تطيق رؤيته إلا مسمارا في عنقها أو مصاصة دبقة تبللها بريقها وتنحتها في فمها إلي حد الفناء ،أو بيضة لا مقلية ولا مشوية وإنما ترقد عليها نيئة ،أو قطعة صابون تدعك فيها ظهرها، أو محرابا لا يصلى فيه سواها ،ودت لو تنقله من الحالة الصلبة ،والسائلة إلى الحالة الغازية فتتنسمه من إحدى فتحتي أنفها .كان الجود يسافر مبتعدا عنها أميالا وأميال . ولكنها لا تبخل!؟ لا تبخل عليه من مخالب حريرها أو تيه نيرانها ،أو سوط عطرها أو رقة صريرها أو رذاذ كبريائها أو استبداد فخذيها .

لماذا مازلت على تضحك ؟هل تظنني واهما ؟ الا تراها تزأر في صورة وجعى ، وتنتفض مارداً هيهات أن يعود لألفين من السنين ! إنها تحب الرقص ،لا تقل لي أنك لا تعلم ،أكاد اجزم بعلمك ... ما زال يجلس متربعا فوق سريره ويتكئ على مخدة فوق رجليه ويكلم الهدهد ولايكلمنى ؟ إنها تتقن الرقص ،إنها تدمن الرقص على ثقوب قلبي المرتكس وفوق عرشي المنتصب يضم رفات كرمي وصمتي ووجعى ووحدتي .

أحب أن يسحب من عمق ذاته قدرة العطاء فغاب طويلا ثم عاد ،جاء الغراب الصغير بالطعام عجِلاً ،يسابق شوقه ... ألقى به أمام أمه ترابط في العش ،نزِقا يرفرف ،قصرت أطراف البحر عن الإحاطة بمساحة فرحه ،ترقب منها حنين العناق ورقيق العواطف ، حُسن الثناء ولُطف الكلمات ،غافلته وعاجلته فلطمته ونقرت عينه اليمنى !!

عاش الغراب الصغير أعورا ،وعاشت أمه تندب لونه الأسود ،وتبكى كلما نظرت فرخها .تتمنى الصفح ولا تستطيع البوح ،لم تقدر فيه انفلات الروح وصفاء المقصد ورغبة الإنجاز فنقرته وأدمت قلبها و أوجعتني.

انظر ،فأنا ما زلت أرقبك في جلستك المتعالية ،المتباهية وجملك الشريدة تخاطب سراب الأيام وأجساد الموتى وخلب اللقاء !أحببته وما كان لغيري أن يكره فيه ما لم يراه سواي، كانت الشمس تنطوي تحت إبطه صاغرة باكية وكانت المدامع فيه تزرع القمح خبزا طريا يأكلونه ويصوم ،ولكنه أغمض عينيه للابد ولم يلتفت إلى أبدا. لقد كان أعطى الناس للحزن عَبرَةَ (واثبت عقلا والقلوب بلا عقل) .

كيف حالك، عساك بخير ، كيف حالك إن شاء الله تكون مرتاح ،وتحف طيور السعد بك من كل جانب في جنات من نخيل وأعناب حيث لا قلق ولا سهد ولا التباس.

كيف حالك ، وأنت تراني أقارع الأيام وأصارع حوادث الزمن ، اغلبها يوما وتحطمني أياما

كيف حالك وأنت تسمو عن كل مباهج الدنيا وترنو إلى ! ألا تراني أتردى في حفرة سحيقة من الحزن والغم والهم الشديد . فماذا عساك لي أنت فاعل !!

كيف حالك ؟!ألا تطلبني أتوسد الثرى أسدا بقربك ،وربما أتجرأ وأحتضنك ! ألا تدعو لي لأنتفض على الحرير والرقص والهدهد وثقوب قلبي المرتكس ، لأنتفض على صاحبتي وأمة الخوالف معا ، انهم المنتكسين المر تكسين المنتحرين أعدائك .

والحال أنك نقلت فراشك إلى السماء ، ألا تقربني الآن منك أكثر فأكثر، ألا تراني حقيق بالاقتراب منك والابتعاد عن عفن الدنيا وشآبيب الحقد وطعنات الملتصقين المقتربين أصحاب الوجع الأكبر ، والألم القاني يرمونه في وجهي ويغرسونه في مسامات جسدي الميت .

انهم يستعذبون ويستلذون شنقي ، قتلى والتمثيل في لحمى ، والفطر من صدري ينتزع روحا . كيف حالك ، عساك بخير ، في سماك العالي عساك بخير والدمع في مقلتي عليك مازال متحجر .

رام الله في ٢٦/ ٦ / ١٩٩٩

إنشـــــــداد

لا أدرى لماذا أسميت هذا (الهرج) بهذا الاسم ؟ربما لان شعور التوتر الممتزج بالقرف والمخضب بالألم والمنفعل بالخوف والتوجس يسبب الإنشداد ،انه إنشداد وليس شد لأن الشد مسببه أحادى ،يصاب الإنسان ولا يصاب التوت البرى بالشد العصبي فيصرخ في وجه مديره ويمزق الأوراق ويمد عنقه للمقصلة ،وربما يحطم جهاز الحاسوب الراقد تحت أكوام الأتربة كالنعش على رأس موظف يتحذلق ،أو يلقى بشريط(لميعه جمعة)المطربة المهروشة من النافذة ،وبذلك ينفس عن جزء من شحنات الطاقة الزائدة التي ولدت لديه هذا الشد ،قد تتراكم عوامل عدة في زمن البغي والبغايا والجفاف العقلي والشدة وزمن الردة ،ولكن الشد يبقى في نطاق الاتجاه الواحد،بينما الإنشداد متعدد الاتجاهات عنيف التجاذب ،كثير الذبذبات حاصد للآهات ومجهول البوصلة ،بحيث أن الشخص لا يدرى على الأعم و الأطم كيف ولمن أو مع من ،وفى أي اتجاه يكون انشداده .

كثيرا ما اشعر بهذه الحالة عندما أكون منتظرا على باب وزير أو مسئول أو مدير ولدته أمه عبدا ،مدلس مخاتل ظلامى ،ومنبع الإنشداد الأساسي في هذه الحالة منطلق من حالة التوجس

والتي مبررها إمكانية أن يقذف بي (وبالذين خلفوني) بكوب الشاي الذي ما أن انتهى من اجتسائه إلا والنظرات تتراكم فوقي حتى أحس بالعرى التام فاخرج مسرعا لأستر عورتي والعن الساعة التي اضطرتني أن الجأ لهذا المسؤول أو ذاك حتى بت أتمنى أن أخيط جسمي بعباءة سوداء عصية على النظرات السوبرمانية الخارقة .

ويتلبسني مثل هذا الإحساس حينما تقذفني صاحبتي ذات الأقدام الحافية،عاشقة الذهب وسنابل القمح ، والجمل الحائر ، بحجارة تبرمها اللانهائي ، وذلك فترة الفرجة المجانية لمياس القدود وكواعب النهود المطلة علينا من صحون العسل المر نتذوقه مع البث الإعلاني ،وإعلانها الدائم عن (زهقها) المتواصل من جمودي ورغبتها أن انسلخ من ثوب ذاتي و أتحول إلى عبد البر البهلوان إلى (أراكوز) لا يمل وسطه الرقص ولا تتوقف رجلاه عن الشد ، ولا يكل لسانه عن الإشادة بمحاسنها والإسهاب في الشرح إلى أن يتم اقتناعها بحسن الإجادة ، ناهيك عن التعبير المتواتر عن حبها والسقوط في لجج بحر غرامها هي لوحدها متناسيا حتى نظرات إعجابي المختلسة لفتيات الإعلانات التجارية خاصة أؤلئك اللواتي يتمايلن ذات اليمين وذات الشمال كأفاعي العشب و يأكلن (البوظة) في حركات الرفض الأنثوي للحرية والانشداد لعصور التمر وشهوة الجواري .

إن الانشداد صيغة تحتمل المط ،والمطمطة من المواهب القليلة التي حبا الله بها عباده المتخمين ببئر الفجور ،ومحبة السجاد العجمي و(البلاك لابل)والنهود المحرمة العامرة ،ولان الوقوف على باب جعفر البرمكى منية للكثر من أصحاب الأقفية الرطبة والألسنة الزلقة ،تظل المطمطة علما لا يتقنه إلا هؤلاء وله تفسير لا يفهمه إلا أولئك ،و أبقى أنا الوحيد طريد التماسيح الطائرة ،ومظهر الفشل المتنامي في نظام الانشداد الوثاب .

يفرح الكثير من الضفادع و يصهلون حينما يبصق(الكبار) في وجوههم وربما يباعدون.بين أرجلهم استعدادا للحظة العبودية اللذيذة ويقيمون الزينة والأفراح للفحة الهجير القادمة مع انهمار الياقوت والزبرجد من بين ثنايا أفواه التماسيح الطائرة بأرزاق الأمة وخيرات البلاد وذل العباد ،فلا يحضون على فضيلة ولا يأثمون لفعل رذيلة .الذل في عيونهم قد وقر واللؤم في عيونهم قد استقر .

يلازمني الإنشداد في حضرتهم ، ولا اجلس في حضرة كسرى ذا مال الا الميزان منى قد اختل ومال ،خوف وزهد ورغبة جاثية على قلبي تحضنني وتدفعني للفرار ، والتدثر في حضن صاحبتي الخميصة المرتعشة بجمر الدماء المسفوحة على عتبة عينيها الغمام . لا أحبهم ،ولا أهش لملقاهم وافرح فرح الطفل الرضيع يستجيب للمناغاة ويضمر شرا مستطيرا ورغبة في سلخ ظهور العقارب اللساعة (بالشباشب)وسيف العدل . كيف ارتاح في

مقعد تتناثر عليه آلاف المسامير ،في محيط نفوس قفرة ،يباب ،لا تعرف للآخر وجودا ، في قلوب زجاجية ،وأفواه لا تستلذ بالفلافل والفول ولا بالزيت أو الحميض .

إن في الانشداد تباعد عن الجملة المركبة في قمة راس خروف البحر تظهر الرغبة الآثمة في مضاجعة القبرة ،تجلس في مكتبها تحت أعين أسرى نار متقدة ،ومرجل يفور بالعشق ،بئر يفيض بالشهوة ،شعر ثائر وصدر يضج بالحركة ،وسيقان كأمواج البحر مضمخة بعطر القرون ،وهو يمنى النفس في امرأة تنسج من حبل أفكاره رداء تتزنر به ،تلفه حول جسدها الثلجي فلا يترك بقعة واحدة فيه إلا و أنالها نصيبها من القبل . أتباعد عن توتري وقرفي فلا أكاد أتتنسم رائحة أغنياء الحرب ،أغنياء الحب ، إلا وأصبت بالإعياء والانشداد .

أطال الله عمركم !يا سيدي !! ألا اطمع في نظرة عطف تطير حمائما في ليالي عبثكم الطويلة الحالمة ،أو من نبع الأباطرة الصغار أبنائكم وحاشيتكم المنذورين لخدمة محراب الوزارة أكلا وشربا ولهطا ولحسا وتجرعا ،أطال الله عمركم من قصر أعمارنا الموهوبة سجادا تدوسه قوائمكم في الرواح والتقافز ،أطال الله عمركم !ألا اطمع في حبة بر أو نرجسة مزروعة في قلب كلبكم المنقوش على خريطة فلسطين المعلقة في صدور رعاياكم .

أطال الله عمركم أو شده إلى حدود الفتق ،سيَان ،وأنا الإنسان المشدود في قعر الأخدود ،الموجوع المقموع المخلوع يعيش ذل نظرات الحراس الحديدية ،والقلوب الزجاجية ،ودموع التماسيح تقلم أظفار العوسج ،وتشحذ سيوف التتار ،ويحيا بين ضحكات الضفادع المنطلقة من خلف خواء الصمت المتكور في الأجفان ،أطال الله بقاءكم مدحلة فوق صدر الأمة أو خازوقا في رمش عينها ، فدلتا النهر لا تصب إلا في جيوبكم ،وأنا الإنسان البسيط أرقا وقلقا وكآبة وخوفا ،هلعا وانشدادا .الحساس لمرأى النجوم تقسم ألا ترحل ،المهمل على رمال السوافي ،الفقير اقبل حوائط قصوركم وعيون حبيبتي ذات الأقدام الحافية ،المتبرمة (اكرهها واشتهى وصلها) ،الملهوف لليل الخريف ورنة القُدوم وهسيس المنجل ،ألا أجد عندكم حلا لرعونتي البادية وتجرؤي الأسود على مقامكم السامي المخضب بحليب الأفخاذ ورائحة الفسق ورنين الذهب ودوى المدافع ؟؟.

رام الله في ١٩٩٩/٧/٢٤

ارجع أبيض كما الندف.

حدثتُ صاحبةً تألفني وآلفها عن ظلمة الطريق ومصاعب الانبثاق ، ووعورة الانقباض في نسيج المحو، فردت علي متأملة :

ألقِ أشرعتك على وهج صدري
ودعني أمسدْ لك شعرك، وأطيل في كفيك السهر
ألق نهارك على عمر ليلي ، على كتف ليلى
وتدرب معي على حب الألوان والذوبان والصبر
انزلق جمرا من رماد الروح ، وظل السطور
وادخل قبر النار في جرف فؤادك العليل
ادخل متن الروح الملول من تكاثف القلق وانقطاع البرد
وانزع كل الحجب واكبر طفلا في حضني
انزلق جمرا من رماد الروح ، وظل السطور
وادخل قبر الضوء العاصف من سرة الحياة
ادخل قلب الروح الغاضبة من كآبة المستحيل
وغشاوة زهر اللوز
قف وواجه ذاتك ، ولا تذب في صراع الفضاء وعناد الأمس
وارجع أبيض كما الندف يتساقط خارج نافذة القمر
انظر طويلا في فناء نفسك المرتعشة المتذبذبة الساكنة

والتقط منها جذور الغد وبذور الشوق ، وحبات المطر وتأملات الروح

في ثورة البركان ثورتك البركان

أخرِج من جسدك ندوبك، حممك ، جمرك

من صدرك أخرج قبيلة وشق فيه طريقا

وسر نافذا نحو شمس الروح ولغة الحنون ودوران الفلك

وارجع حريقا صاخبا وبرقا أبيض كما الندف

ثم جلست وصاحبتي في نغم الحياة متجاورين ، وتعاهدنا على الارتباط ثلاثة عشر عاما حتى الآن وثلاث زهرات ،وفي عيون البحر، ولم أعد أذكر هل قالت لي هذا الكلام قبل البسمة الأولى أم قبل يومين أم عند شمس المغيب أم منذ سنة .

القمر الأزرق

لقد أصبحت السمة العامة التي تميزني هي التردد ، أتردد في التفوه بمكنون نفسي وخبايا ذاتي ، أتردد في الإفصاح عن صخب الكلمات وثأرية النوايا ورمادية اليوم ولذة الجلوس أحتسي كوب الشاي مع خِلي وراء نافذة في يوم قرِ ماطر وأتحفظ الطرق على باب هواك المقفل أهوى الإجابة العجلى ولا أجدها! هل ترى في ذلك أمرا

مستهجنا ؟!ربما ولكن ألا يهمك حواري الذاتي هذا .؟! أريدك وأبغض الحاجة إليك أحبك وأرنو التخلص منك !؟.أين أنفيك و كلما كلمت نفسي كنت باديا في الصورة.مرآة الروح أنت وسعى السكارى بين الحانات،وانفلات اللحظة الحبيسة أنت.وانهيار البناء المترابط ،
اصبر فان الصبر مفتاح الفرج والصبر رفيق الحق وحصان التقوى
اصبر فالنصر صبر ساعة ولا تدع الرزايا تمزق فيك الروح الغريقة
إن الصبر ثبات ورباط .هكذا أظنك كنت ستقول ! ابتعد عنى ، واخرج من ذاتي لا أريد أن أرى من عينيك !أتدعوني للصبر وأنت المفارق المعاتب الكاره لأيوب تأبطت الشمس إبان الكسوف وما عدت!!
أأصبر !! والجلد قد تمزق والمسافات قد استطالت والهدف غطته الغيوم والثمر قد قطف وأصبح منثورا على موائد الناكصين ،أرجوك أن تترك قلبي وشأنه ،دعه مدفونا في ميسم العنق الممدود من كوة الريح الساخطة .... لا أحبك ولا أقبِل تجاهك ألا مترددا أأنت أنت أم أنت أنا فيك اجتمعت المآسي وتوترت النوافل وتجرع العبير فهدا لاهيا لم تعد تفهمني !أليس كذلك ؟ هذا شأنك اخرج رقيقا من دياجير الفلوات المجنونة فى دماغى الباسق واترك أحاسيسك الكاذبة إلى يمين المنصة المرفوعة فوق أذني ولا أسمع منك عبرها إلا العويل .لا أذكرك إلا جوالا وعداءً فكيف تطلب منى الصبر ! ارجع عن غيك وارتدع فلستُ أمَة مستباحة ولستُ عبدا لملفوظ نصائحك .

أنت هو ذلك الجالس بعيدا فى سكون الكهنة وهدوء الموج يتأمل ثلاثون عاما من الاشتعال والحبق المجنون، وثلاثون جريمة كنت تقف أمامها مذعورا مختبئ وراء المُثُل والزهور والبياض والطهارة والهروب والبحر والقمر.

سار في النهج الجامع وانعطف في خذلان،ملقيا وراء السحاب في وهن كل ما اعتنقه من عالم الحقيقة والسحاب ! نعم أنت هو العبد الواهن لا أحبَ الآن رؤياك ،وكنت أحب ركوبك الموج وامتطائك الوعر من المسالك ،وندوب المعركة تغطى ذراعيك وتلوث ملابسك وتلطخ كفيك ،وكنت أحب أكلك البسيط ونومكِ المؤرق وعرقك المنسوج فوق جبينك المركب وسط وجهك الغضوب. من أنت غير جمل نافر وأسد رابض وشمعة دون حياة ووعد تام وتهجد في هدأة الجوى والنار تلفح وجه القمر الأزرق

فيك العجَب ومنك الصفير والتعب ومنى القبر قد برز صائحا نائحا لن أنام ألا بين أحضانكم الخالية أبدا ،فأنتم لا تعرفون العناق ولا تحلمون ألا بالعشق والجرح والسهد والفراق ومن غيري تعيرونه صدوركم، ولا يستنكر أحاسيسكم المنداسة .؟!

بعد الخذلان هل من أمل في التراجع ؟ أيها القمر الأزرق الحبيب الفاتن المفارق ألا من عودة إلى الماقبليات .ألا تقبل منى الأعذار والانتظار على باب غربتكم وأنا الغريب في بحر أمتي المنكفئة المنحازة إلى ذوى السواعد المفتولة المنحازة إلى الآخر

يرجمها فترشقه بركان دم لا يجلس المنحازة إلى الفتنة في الرنين والتكور والتجرع وهز الأرداف من القاهرة إلى جنين آه تخرج من عمق البئر الموجوع الغائر آه لا تخرج إلا مخلفة مئات الشقوق والأخاديد آه ثم آه ثم ماذا يا أيها القمر المرصع بالجوهر وشظايا القلوب الواجفة والعشب النابت وعقود الياسمين ورائحة الفجر الثابت على أعتاب بوابة الأمس تخطانا ولم يعد . أريدك رغبة مترددة متوثبة مترجرجة وأخشى فيك الأفول .أحب القمر الأزرق من عينيك وعيني حبيبتي لا تعترف بالجزر أو الشواطئ وأخشى فيك وفيها البحر والسقوف المفتوحة.

في الليلة الفارطة هجمت على ، أثرت النقع فلم أرى النوم إلا كسفا مترددة متأرجحة كنت في عيني دربا نحو الأمس الذي طلقت والبعيد الذي مللت ، وهاأنذا أعود إليك أُقبلُ الأيادي وأتوسل السبيل للنجاة من انبعاثك فيَ واستفحالك في التلافيف المتقدة تحت فروة رأسي المتآكلة ! أنت الوسن المتأخر والركوب في الاتجاه المتعرج أنت الفلوات في اختلاط الثلج ودبيب النمل وانتحار الشفق وعذاب الصفرة في نرجس كفيك .

مد إلي يدك ولا تبخل فالنور لا ينقضي في زحمة الصباح والضياء ثراء دون ثمن والحب فيك صلاة واستغفار... أتعتب على صراخي فيك وأنت روحي واندفاعي نحو الشجن والعنت . لقد انشق القبر في صدري واقتربتُ فيك قمرا أزرقا .

يا للّثمة الأولى لصبى يافع فما لفم مع أنثى متفجرة في زاوية منسية في دغل المدينة الفلاة المتحجرة الرافضة للعيون المتلصصة ،يا لعناق طال انتظاره مع توجس الفناء ورغبة الانصهار في المفقود من اللذة المنتظرة المشتهاة على عجل في حيرة وتوتر وأمل غير مضمون ،يا لعشق التمدد على أرض الحجرة العارية من ترف الغد بعد نهار مثقل السعي والهموم والأعباء ،يا للهفة الترقب والانتظار لإطلالة النوار لحبيبة لينة المفاصل طرية الأصابع حثيثة الخطى لم تتجاوز السنوات الخمس من عمرها اللاهي تقبل فلا تتمنى لإقبالها من بعد أي أدبار ...هل ما زلت تقرأ في الشفاه !؟ وتستمع لهدير المعارك في انبثاق روحي اليتيمة في سماء القصر المحاصر فيك قمرا أزرقا .

أما من عودة لك عن انصهارى فيك ؟ ألا أجد فيك نسيجا واحدا يستوعبنى قطفة واحدة ؟ ألا تقبل اعتذاري في حبك وترددي ، ورغبتي فيك التقهقر والانفلات وتوسلي النجاة منك فيك!؟ هل انتويت الانطلاق أم عزمت على الانتحار في قبر صدري.

رام الله في ١٩٩٩/١١/١٥

فقد النسيم !

عندما غاب محمد عن طحين قلبي وزعانف صدري وغابة الصور أحسست بالفقد .وعندما أصبح صوته أكثر غورا وأكثر دفئا كان بذلك يخترق المسافة الفاصلة بين المكان الذي يجمعه والأحبة ويطوف في لحظات بأزمان كانت له وكان فيها ، ليصعد حيث البروق تشهق أنفاسها والأمطار تلملم أرديتها ، والبياض ينتشر في مسطح الفقر .

الغياب صعودا

عندما غاب محمد –أي محمد– كان يعطي الإشارة بالرحيل لكثيرين تمنوا ألا يفارقوه ...فتبعوه؟! لكثيرين جمعهم المكان ذات مرة ، وفرقهم عبث الإنسان في تصاريف القدر ، وخرافات العظمة والانسياح .

عندما غاب محمد لم يكن يعتصر ذهنه ليتذكر سعيد ، فالأول صعد سلم السماء من فلسطين مكروبا موجوعا وحيدا ، والثاني صعد نفس السلم من البعيد مكلوما، ليمرا من دهليز المظلومين الضيق المظلم عبورا إلى ديوان الفائزين .

قطرات الوطن

في ذات المكان اجتمعنا يوما نتلحف دفء الكلمات وانتباهات الليل وهديل القمر ، وإن كان المكان غربة فالأقارب في الغربة شجن والأصدقاء في الغربة وطن .

في ذات المكان كان الانتماء يتجمع قطرات قطرات في حلقة الدرس التي تضيء مصابيح الوطن وتُربي الأحبة ، وترسم السماء في محاريث العقل كما ندون حروف الإرتواء من عيون شجر فلسطين في ابتسامات البهاء وزهو اللحظة وعيد الثائرين .

المكان عين

المكان عين تبصرنا ويد تبسط راحتها لتقبض على مشترك أحزاننا وأحلامنا وآمالنا وأشجاننا وضحكاتنا وأسرارنا الصغيرة ، تحت الأشجار القليلة حول العشب الأخضر حيث التقينا كثيرا ، كما التقينا في قاعات فاخرة حول موائد أنيقة موضع ألقينا بأجسادنا وأحمالنا الصغيرة على وثير الأرائك متحلقين ، نرسم بأصابعنا شكل الشمس وحطة الفدائيين وعيون الحديد وانتصار الوقت . ونرسم دوائر من الأحزان والابتسامات وأهراما من فرح اللحظة المفقود في الآتي من الزمن حيث انساح المكان .

صندوق النسيم

كنا في مكاننا المشترك نضع أوراقا كثيرة وبطاقات في شق الزمن حيث صندوق النسيم ، صندوق الذكريات ، في كل بطاقة نبذة صغيرة واسم ومعنى ، وفي الأوراق عصير يومنا ونسيج حيواتنا وأحلام المأمول ... لم نترك عادة (الوضع) في الصندوق حينما أسعفنا التواجد في المكان الواحد ، وعندما فرقنا التشرد في العودة للوطن ، أو في الغربة الثانية أو الثالثة للآخرين منا ،
تحولت عادة (الوضع) في الصندوق إلى مراسلات (تحملنا) إليهم و(تحملهم) إلينا عبر موجات الأثير من هاتف جوال أو بريد يتعاطى الإلكترونات ، ويحاول جمع الزمان في مكاننا المبعثر كي لا يطفيء الشمعة ، ويبقي على نسيم الذكريات وموصول دخان الحاضر.

غبار المكان

لقد سقط المكان وغاب الزمن ، سقط المكان بتشرذم جمع الصحبة من الأحياء ،.سقط المكان مع انكسار الضحكات وتلاشي الوجوه ، وتكدست أكوام الغبار على الزمان الذي توقف أين جمعنا المكان الواحد ذات لمحة . تجول عجين الزمان في المكان (الزمكان) بالأحباب إلى نسمة أو هنّة أو نزغ أو خاطر أو بطاقة أو ورقة في شق الزمن وفي صندوق النسيم .

الزمان ورموش العين

الزمان قيمة متحركة ، متحررة ، لا تنتظر ولا تقبض عليها رموش العين ولا ينفع معها حصار القلاع ، فديمومة المكان تتناقض مع عصبية الزمان الذي يتجول من حولنا بحرية التجاوز والتعدي ، ويرسم الحرمان للبعض كما يرسم الابتعاد للبعض الآخر . يرسم الأسى للبعض كما يرسم الفرحة للآخر ... حينما التقينا في صدر الزمن كان في ذات المكان محمد وسعيد ونحن وهم الذين آلوا الآن إلى البعيد حيث لا أمل في لقياهم .

وحينما أدار الزمن لنا ظهره فقدنا بالموت أحبة وفقدنا بالبعد أكثر مما فقدنا بالموت ... قطع كبيرة من أرواحنا الهائمة !

دهليز المظلومين

من دهليز المظلومين حيث نهج الصعود للدار الأخرى نتوقع اللقاء مع الوجوه المرهقة والقلوب المتعبة والعقول الحية والنفوس الدافئة والأجساد المنهكة في ديوان الفائزين ، كما نتوقع اللقاء مع خيول الحظ وشموس لم تطلع وحقائق تاهت في دار البوار وآمال لم تتحقق ودعوات كانت قد سبقتنا ، وأنسام عديدة ومياه كثيرة . وفي نفس الدهليز نشتم رائحة الأيائل الجميلة وعيون الليث حيث تختنق الأنفاس ويعم السماء زخرف الضياء وترشق الأرض فتنة الذهب .

خريطة الارتواء

في الحافلة التي أقلتنا سُلّما نحو الزمان المتوقف والمكان الناظر إلينا من علٍ ، في الحافلة التي أقلتنا نحن الموزعين على خريطة الارتواء للنفس الوثوب، والعيون ذات البهجة المكتومة أو المؤجلة أو الغائصة في أهوار الألم وسبخات الأنين ، كنا ننظر لثياب النور تغطي أجسادنا جميعا ، حلل بيضاء متساوية متناسقة ناصعة كما هي حلل حجاج البيت العتيق في دنيا خبيز العشق للسمو والحنين والدفء. كنا ننتظر أن تُلوّن أسماعنا بصوت البلابل وصوت محمد ونسيم سعيد ولكن أسر الزمان للحافلة المنطلقة صاروخا ضوئيا والطريق، لم يترك مجالا لغير لغة المقل .

أعناق الأبل

في الغياب فقد شنيع ، وإحساس بالتقهقر ورغبة باللحاق ، وفي الفقد لوعة زوج الشهيد ودمعة ابنته وتجلد ابنه وهرم أبيه واحتراق قلب أمه . وفي الغربة الثانية فقد وتقهقر وبكاء مرير وخلع للزخرف وطي للمآدب والاحتفالات ورسم للشجن على عقب الزمن وفي أعناق الإبل ؟!

الغربة الثانية

حينما تغربنا للمرة الأولى اختارتنا غربتنا وطوينا معنا ذكريات قصيرة وتجلد أثير ، وحينما تغربنا دون خيار للمرة الثانية انهدت ظهورنا بعد أن ناءت بحمل الشوق وملايين الدموع وصبر البكر ، وانهارت مقاومتنا وبروق ذاكرتنا مع سخونة الأوجاع وتقيح الجروح وانحباس الخوف من قادم الزمن ومن الأمل المفقود في تحسس مواضع الأصابع للماضي اللذيذ في محمد وسعيد وكل الصحبة والأحبة والشهداء والفقراء والفدائيين والمفقودين .

أنسام

انثر عبيرك على بحر قلبي وابتسم ، وارسم شفاهك في صفاء النور المتدفق من نسيم روحي ، وسجل اسمك على جناحي حبي وسقف الرفق ومرج عمري.

اسبح في صعيد روحي وارفع يديك تضرعا لحين تلاقي المهج وعناق الأبصار ، وابسط همومك في حليب الخفقان ومزن العبير ، ولا تقعد أبدا واجعل من قدميك منطلقا للهبوب .

مد يمناك واغرف من ماء عيني حفنة ، وخذ رشفة لن تظمأ بعدها أبدا ، مد يمناك واغرف من دمع عيني واغسل وجهك حيث لن

تغير بعد ذلك أبدا ، انثر من دم عيني نحيبا في فوهة براكين الصامدين الصابرين في أرض كنعان الحزين .

تكلم معي من زوايا الحوائط الواطئة الملونة ببصمات يديك المسبلتين ، وحدثني عن أهل البهاء وجموع الفقراء ورفقة الثائرين ومجلس الشهداء ، وانحت بكلماتك شكل روحي وأضىء في قفر قلبي شمعتين ، شمعة للزمن الصائح وشمعة لنسيم الذكريات .

فلسطين –بيرزيت ،٩رمضان ١٤٢٢، ٢٠٠١/١١/٢٤.

كيف تغرب الشمس ؟

كيف تغرب الشمس دون أن تؤمر؟
تروح راكضة وراء التل ،تلقى بخيوطها الذهبية
وتنزع أحمال اليوم الثقيلة ، ترسم في الأفق لحنا
كيف تغرب الشمس دون رفقة ؟
وتغطس في زمهرير الشفاه الباردة
تختفي وحيدة ،تنازع الصمت والكدد
من خلف أذني حبيبتى تغرب الشمس
وتجدد الروح ، وتنبعث صفحة ماء
تنثال كالمجد وتلقى بالبريق
كانت تنصب الشباك في البراري لأصيل يوم غابر

وتنتفض من نومها فزعة عند أول زئير
كيف تغربين أيتها الشمس ؟
أنا الشمس لا بعدي ولا قبلي !
أنا معبود إبراهيم حين تاه
لا أغرب من الخلف فأنا أمام فقط
أنا أصل الحياة ورب الضياء وحقيقة العشق
لا البدر حين يتجلى ولا كواكب الوهم تفزعنى
أكون حينما يطل النرجس من سقف الجوى
وأتضاءل حتى يبرخ الجمل قتيلا حين يتباعد
أغرب وأشرق وأركض وأرسم وأختفى وأنثال
أمارس كافة الأفعال دون عبث ولا استجواب
نعم أنا الشمس ! أغرب حين تزف حبيبة
أو حين يغتسل النرجس في قبة الدموع
أبتعد ،أتكوم ،اتناءى ، وأفرش ردائى مقعدا
وألقى بشفقى مرجانا يجنيه العاشقون .
أين أنت منها حين تقبلنى ؟
وأين أنت فيها حين أطلع من سويداء قلبها ؟
أنا الشمس فهل من مدّكر ؟

رام الله في ٦/٩/ ١٩٩٩

الفراشة القلقة

في ظل القلق يبتعد التألق ويسكن المآقي الحزن
كانت سمراء فاتح لونها
تتجول في كتاب التاريخ وحيدة
تحوم في الضوء المنبعث من البعيد
في الجوار تجاوزت دون رفقة بابين
ودقت الثالث وشما ملونا
رسمت في الهواء إشارة مبهمة في زمن التمادي
وبدت خائفة قلقة
في (نهج المتنبي) ب(المنزه السابع) من تونس فتنتني
ولدت ثرثارة تمل الصمت وتعشق الأطفال
تجاوزت اللهاث في فتية كهول
مسرعة انطلقت لا ترجو النظر في وجهي الملهوف
أغلقت أذنيها كيلا تسمع فحيح البيوت المتلاصقة
في حي (ابن خلدون)
قلق ،قلق،قلق
ركضتُ وراءها حتى أصبح اللهاث صنوْ عدوي
رأيتها واقفة تحت شجرة ظليلة في حي (يوغرطة)

كانت تلبس القلق مثلى من جذور شعرها حتى إبهام القدم
تبسمت في تعب أيامي وسارت معشوقة
قلق،قلق،قلق
في ليل الياسمين الآتي مع صيف تونس عند (البحيرة)طلعت
قذفت عتيق الأفكار وحصاد الزمن وقلق التواصل
مزقت ليالي الآهات ودروب العتمة ونزق الألم
وانبجس من سويداء قلبها المرتعش في ذاتي أربعون عاما
كانت المهابة في جمل يتهادى ولا يتوقف
تلقفتها بين ذراعي وادعة منغلقة
وبعد سنوات الجمر والحريق ثارت على الوداعة والوشم واللهاث
أحببتها واحدة ،أحببتها كثيرا
كانت الوجع المتصاعد من كل أجزائي
أحببتها فراشة فأوجعتني ،وأرهقت أوصالي وما مللتها
قلق،قلق،قلق
اختارت (عمان) حديقة ورود
وانتزعت لها فيها من عين الجؤذر عرشا
كانت الانفلات من مدار النجوم ، كما رأيت فيها
فيها الشهد والمرار ومنها السهد والانقبار
فيها الشهد والحنين ومنها الشدة والدمار
التقت في فؤادي المحيط الصدوع ، وتكومت الدمامل

تكاثرت الدموع ، فسبحتُ في غيوم القلق
قلق، قلق، قلق
بين أمواج (الصويفية) عامت تحفُ بها من كل حدب الآهات
كانت تنسج في الليل المقدس مطرا
ومن ضلوع القلقين صنعت كرسى عرشها
طارت قلقة واستقر فيَ عطرُ شعرها .

تونس في ١٥ /٤/١٩٩٩

لا تكف عن العقوق

في بيداء قلبك الرقيم كنت أمشي ، أتلفت فلا صوت يؤنسني ولا ألوان تبهج القلب المنقبض ، بيداء قلبك صحراء ممتدة ، صفراء قاتلة ، أغوص في الرمل يملأ فمي حتى أتنفس الغبار ، يركبني التعب وترهقني الشجرة ، ويتلبسني الاندحار .

تطحنني رِدة عينيك عن ورود عقلي المرفرف يسبح في الأفق ، وتقذفني سعيراً في عتمة الدهر ، ما زلت أمشي ويقتلني الطنين ، ولا صوت أشربه لأطفئ لظى عشقي لك ، ولا ألوان صالحة لاستنشاق روحي .

حفرت تحت قدمي عميقا حتى تساقط العرق الغزير يبلل الصفرة الطاغية بالماء الساخن ، وتقصفت أظافري ، وسال الدم من

منابت الإحساس في مركب الليالي فاختلط بعرق البارحة وعرق السنين وعرق المتعة ، فانبريت ألعق أمسي وانتظر فيك موسم التمور .

تجلدت قدماي في صحرائك اللهوب ، فكنت أمشي دون مفاصل دون فواصل قفزات حطت بي حينا في عش السنونو، وآخر في بطن دودة قز ،تناسخت خيطاً حريرياً يطوّق صدور النساء وأكفال الحسان دونك، فمللت الليونة ، وأسِفت للحظة الفراق على أظافري المتكسرة وبيداء قلبك الخشن .

كورت الرمل المسوم بعرقي ودماء الحرير، وأطلقت قذائفي باتجاه الريح ، فلم أصب قلبك الموحش بحب الأنا ، ورفضي مرفرفا في أفق الحرية أصرخ في البرية ولا أسمع فيك حتى صدى صدري ، لقد ذاب العويل في نزيف التعب ، وبين عتمة الدهر ، واسترجعته طنينا مدوياً فيَّ كسرب طائرات لا تمل القصف ولا تكف أذني عن العقوق .

لم ابتعد كثيرا في المجال الأصفر حتى أسرت بالاتجاهات الموقوفة عند حد الوحشة وحد اللون وحد الصوت وحد الريح ، لقد أسرتني تيماءك وجعلت من أغصان صدري وبتلات عقلي رماداً أحمراً .

ما زلت أتقدم تلحقني قدماي المتجلدة ، وأتجرد فيك حتى من طعم التراب المر لا يكف عن العقوق في كوكب الذهب ، ما أن أتقدم

حتى أعود لأحفر في الموقع الأول مكدسا أكوام الرمل فوق كتفي وصدري ورأسي فلا أنظر ،أن العتمة فيك تطفئ نور عينيّ وتغتصب روحي .

قرأت ذلك في مساء يوم جارح وقفت فيه على شرفة الغد أكتب لرفيقة جاءت من مجرة مجاورة لمجرتنا المعروفة بدرب التبانة ، ومن كوكب عُرف في علم الفلك وعندها بكوكب الذهب .

عمان في ١٦ /٣/٢٠٠٠

لبست ثوب الكوكب الغافي

ساءلت نفسي رغم جفوة معها لماذا كانت تشع بمنطق الكوكب الغافي دون أن تفكر بارتكاب جريمة الحزن المشفوع جنونا ؟ فما أبهت.

إني جلت في البلدان شرقا وغربا فما ارتحت في الغرب مسفوح الفضيلة المرتعب حرية ولا استقبلني الشرق حضنا أو قرطا أو صدرا ، أتنسم الضوء وعبق القلب الوثاب .

عشت غربة الوعي في محيط الاتكال و فضاء الصواريخ ، عصفور دوري.

كنتُ أقتبس ظلي من بحر النور، من دنيا خيال صنعتها خلسة عن شوك الواقع الدامي

لبست ثوب الكوكب الغافي ، الكوكب المرتبك ، الكوكب المحترق ، الكوكب المتألم من ابتعاد الآخر حيث لا هسيس ولا أقحوان ولا لمس ولا قبل أو حتى انفلات نظرة .

كنت أرتبط دون وعي بقبضة تراب ولهفة اشتياق وسماء معرفة ألهمتني حرية التأمل وقدرة التسامي ورغبة الاستقرار وحكمة الاستمرار وانبجاس النجوم من قيعان نفسٍ مقيدة لزجة متأرجحة مقهورة .

عشرون عاما وربما أكثر قضيتها منذ بزوغ فجري تائها شريدا وليدا طريدا أبكي أحيانا ولكن أظنني بقيت سعيدا، في سعي غير مقطوع وانبثاق غير مسبوق ، ولثم في عروق الصخر ،والقافلة لا تلتفت لتأخذ متوقف حزين رمادي الشعر يروي العروق تحسبا لبعد الطريق.

تركوني، فلبست ثوب الكوكب الغافي.

تأرجحت بين مشاكسة الأطفال وتمرد المراهقين بين ماء شلال ودموع سيالة ، بين واقع الأمة وعنوان درس مكتوب على لوحة ممتد من الماء إلى الماء ،ونحيب عجوز سبعينية وأمل عيون تنظر نحو غد سكر فترنح ثم مال وظل يميل ، مال حتى استطال، فطال

انتظاره ، مل النظر النظر فأغمضت عيني في قلب الكوكب السابح في عتق المدى ، جفون هيام تضم حلما كبيرا في غفوة الشرود .

في قلبي كبر المسار وتكاثرت الحفر ،ونتأت الدمامل وتوسعت الجروح الملحية وتشققت شرانق كثيرة لتفتح كل الأبواب باتجاه مساحة الألم حتى انتفض الكوكب فسقطت جبته على كتفي وذابت في فنجان القهوة .

صوبت قدمي باتجاه الجنوب حينا وباتجاه الغرب حينا فلاحقتني سبخة طينية لم أستطع اجتيازها وبقيت أسير شرق أسير ملول جحود لا يقر ولا يعترف ولا يرغب بالاعتراف لا يصادق ولا يغترف ولا يسمح لغيره من معين العيون والكوكب أن يغترف ولا يقترب، وفيها وجدت نفسي غريقا ، لقد اكتشفت متأخرا أنني ما تعلمت أشياء كثيرة .

عصفورا تجاوزت نهجين وأنا أمشي أين نسيت الطيران ، متدحرجا كما الدحية لا تعرف رأسا من قدم ولا مقدمة من ظهر .

كنت أرسم الغد بريشة ملونة جفت ألوانها منذ زمن الحليب، منذ زمن طويل وظلت علامات الرسم بقعا سوداء في دفتر أحلامي و أعراسي وأشجاني و انقلاباتي .

هـــــــدوء

فى الفضاء تتعدد النوافذ ،تتكاثر ،تتنامى ولا باب ينفذ لهذا الفضاء الا واحدا.

النوافذ دهليز ضيق الى مساحات تصغر أو تكبر ،يتكور فيها السكون أوالصخب . يتمدد أوينكمش يتفلطح أوينبعج التفريط أوالتشدد ،المرونةالزائدةأوالصلادة ،جبال الثقة المطلقة أوحبال الوهم ،بياض نقاء السريرة أو قتامة الشك،فقدان اليقين ،التساهل أوالغلو ،الخوف أوالرجاء.

مساحات تتيح للنقيضين أن تتناثر منهما أجزاء ونتف كثيرة ،تصطف فى المسافة الطويلة الممتدة بينهما ،حتى لتكاد على كبرها لا تترك للنقيضين مجال ظهور أوبروز .

في فضاء عقلي الذي تداخلت فيه النوافذ أو الطاقات،الأيقونات تتحرك من أقصى الفضاء إلى أقصاه ،ولا أستطيع التقاط أو تعيين النافذة المرغوبة على وجه التحديد لأدخل منها إلى المباح أو الممكن أو المستطاع ... ان التقاط الشيء في ظل حركته الدؤوبة عمل غير يسير ،وأن شئت فهو صعب عسير .

حاولت ،جاهدت مرارا أن أعين نافذة توصلني للركن الهادئ والحصين حتى كدت أستسلم وألقى بأحمالي على أول متكأ .بهرني ذلك النور القادم من البعيد ،فانتشلني عبر نافذة اللاصخب واللاصراخ إلى الركن المقصود والزاوية المراد .

مر وقت طويل حتى وصلت إلى الركن الهادئ،الركن الحصين ... عمل جبار هو ما تفعله رزايا الزمن التي تخترق الصلب فتجعل فيه مثل الشقوق في الشفاه الجافة في زمن البرد ،ومثل التجاعيد الممتدة على كامل صفحة وجهي ، والأخاديد في الصخور تصنعها السيول المتدافعة نحو الأعمق .

رام الله في ١٩٩٩/٩/٦.

اتكـــــــاءات

تحاورت مع صاحبة تألفني ولا أنفصل عنها عن هم استقر وسؤال مر عليها وربض في بحرنا المشترك : هل الكتابة فن أم الكتابة بيان وفصاحة ؟ وهل الكتابة تقنية يتم تعلمها أم هي امتزاج الروح وانبثاقها بين السبابة والإبهام ؟ هل الكتابة علم ذو قوانين ومناهج أم هي رؤية مختزنة ، وحلم يتراقص في المخيلة ؟ وعنفوان ينطلق من قمقم الفكر، واسترشاد يترك منبعه ليظهر بصورة تراكيب لغوية تشتمل على جمل وعبارات ، فقرات ذات فواصل ونقط ، ألفاظ ومعاني ذات دلالة تخالف اللفظ .

قالت صاحبتي: إن الكتابة فعل الروح والعقل ، وعلم اللغويين ، وفن أرباب الفصاحة وفضاء الأدباء ومجال أهل العلم ، وركن الفاشل الذي لا يتقن النجارة أو صيد الحمام أو اللعب في سوق الأوراق المالية .وفراش الفقراء ، ونزهة الشعراء و العميان عن دنيا اللذة والوقع السريع .إن الكتابة حلم لا يظهر إلا مخطوطا على ورق . أو مضاء على شاشة حاسوب حديثا ، فمن يكتب قطعة أدبية يقتطع زمنا من عمره ، وأياما من سنيه ويودعها مع نتاج روحه وفكره وصنع يديه سريعا ليلقى حتفه.

قلت لروحي نحن لا نتعلم أن نكتب ، وإنما نتعلم كيف نمسك القلم أو نسطر النون أو نستخدم لوحة المفاتيح في جهاز الحاسوب ،

ونستوعب المعارف ونلتهم الكتب على أمل يقذف في نفوسنا السحر ويفتح ثغرة في صخرة الكتابة فينا فيسيل الحبر ، لذلك نتعجب ونحتار فنشعر ونتألم ، ونأكل وننام ونعيش ونأمل ، مع الفعل ومع فعل الكتابة خصوصا قد نموت ولكننا لا نشيخ .

صمتت صاحبتي فاحترت طويلا في تعريف ما أكتب عدا القصة القصيرة والمقالة وما سبق لقلمي أن خبره، فما أكتب ليس بشعر وما ظننته للحظة كذلك ، ربما خوفا من نقد الشعراء وتعليقات النقاد ، وربما أملا في أن أرتقي يوما لأكون في غير زمرة الغاوين.

عندما كتبت أول نص أدبي بعد مسيرة طويلة لخبرة القلم في الدراسات والأبحاث التنظيمية والإدارية والفكرية التي تتناسق مع طبيعة دراستي وعملي واهتماماتي ، تعجبت وتوقفت مع نفسي متأملا خائفا وآملا أيضا ، خائفا من تصنيف ما أكتب وآملا بصلاحيته ليكون ضمن الأدب فلجأت وأنا اللاجئ ابن حيفا لجأت إلى الأديب العراقي المقيم في تونس عبد الرحمان مجيد الربيعي فدفعت إليه ببعض نصوصي (القصص القصيرة) ليتصل بي بعد أسبوعين مشكورا ، وليعبر عن إعجابه بكتاباتي المرة والساخرة كما قال مع بعض النصائح بقراءات لعدد من الأدباء الساخرين .

حمدت الله كثيرا ، لقد زال خوفي وبقي عندي الأمل ، وعندها ابتسمت لي صاحبتي وهمست أن انشرح فقلت له : هل تراها صالحة للنشر قال لي بالطبع ! إلا أنني اشتممت من كلامه رائحة الاعتزاز

والشفقة ، الشفقة من الانخراط في ربقة الفاشلين والفقراء والحالمين ، واعتزاز بانضمام راكب غير متوقع إلى عربة أرباب البيان .

كان ذلك في عام أوسلو ١٩٩٣ وعدت بعد سنة إلى تونس التي تركتها عام ١٩٩٦ قاصدا الوطن والتقيت الكاتب والأديب الربيعي في مقهى باريس بوسط العاصمة تونس وكان سؤاله هو هو : متى ستنشر القصص ؟ فقلت : قريبا ، إلى أن قرَب المسافة بين الأمل والحقيقة كل من الأديبين الشاعرين ربحي محمود والمتوكل طه عام ٢٠٠٠.

لم تكن لي حيرة في تعريف قصصي وكانت لي فيما كتبته دونها والمقالة والدراسات ، إلى أن اهتديت لتعريفها بالتأملات فوضعتها في موقعي المعنون (الاقتراب) على الشبكة العالمية (الانترنت) بهذا الاسم ، ولم أرتح لذلك كثيرا فعدت للسكن مع أفكاري محاولا إنتاج تعريف رفيق أو تعريف قريب لنصوصي أو نثري أو موضوعاتي هذه ، فكانت الاتكاءات .

قالت لي روحي: لقد اتكأت على شيء من المشاعر وليس الشعر ، واتكأت على شيء من الصور القصصية وليس القصة واتكأت على شيء من الفلسفة والفكر أو المجرد كما علق د.وجيه عفونة، واتكأت على شيء من التأمل العميق المستمد من صوفية الأديان واتكأت على شيء من المقالة ، واتكأت على مخزوني الثقافي

والفكري والحضاري والتراثي والعلمي الذي شكل شخصيتي فكان ذلك فيضا من المشاعر.والتأملات والصور والإضاءات والمفاهيم هي بما اخترته تعريفا اتكاءات على أرائك ما سبق .

كان من الفخر لي أن صنفني الأخ المفكر والمنظر العروبي الكبير هاني الحسن ضمن مفكري التنظيم معلنا أنه منذ فترة طويلة لم يقرأ مقالا أو دراسة مرتين إلا ما كتبته ، و وضعني الأخ صخر حبش من قيادات (فتح) المعروفين الخامس في زمرة مفكري حركة (فتح) لا سيما وأنني كتبت مؤخرا سلسلة من المقالات والدراسات حول الفكر والتنظيم والحركة خلقت صدى متنوعا ، وكان مما أفخر به أن يكون لكلمات قليلة من الأديب والكاتب العربي العراقي عبد الرحمان الربيعي أن تواصلت في كتابة القصة القصيرة ، وكان لصاحبتي الفضل في دفعي للتواصل إلى قلق دائم و شباب دائم ولكن بلا شيخوخة ولا حطام .

وها نحن نقدم بعضا منها بعد سقوط غشاوة الحيرة ولو مؤقتا وبعد اعترافي بالفشل أن أكون نجارا أو ثريا ، وبعد تراجع الخوف في قلبي وتقدم الأمل وإن بنسب غير متساوية .

الجزء الرابع

شعرُكِ والبحر

يبللُ ماءَ البحر
شعرُكِ
ينبوعُ السواد
و سجادة النرجس
في جزيرة الشمس
و يظللُ إصباحك
وثغرَك الناريّ
(٢)
تخللُّ قلبَ الريح
أصابعُك
الممسَّدَة
للشعر الهفيف
ما بين الوجنة والأذن
يتطايرُ

في سماء اللظى والبحر

(٣)

من البحر
وأمام ينبوع السواد
ترسل عيناك
شعاع العشق والأرض
في ضلوع الشمس
الباردة
وفي قارب المحب
المقيم
ويتطاير.

(٤)

مازلت منحنية
إلى الأمام
تحيكين قطعة كنعانية
والتاريخ والثورة
ومواويل الجدات
وحرير العرائس
بخيوط شعرك
والذهب

ولهف القلب
وعيون البحر .
(٥)
بعيون الظبية
القلقة
ترقُبين
الطيور والعشق
السّكر والألم القادم
وفي رأسك
جزيرةِ الشمس
المحاصرة
بجبال النرجس
والخصلات
ننام
حيث الأزمنة
والحلم
والترقب
وفاتن اللفتات

*نسيج مهدي كتب في ٢٨/١/٢٠٠٢ ، بيرزيت-فلسطين

الاحتلال وعباد الشمس !

هواء الإبادة العطن

إن الاحتلال حريق في سفر الإيمان ، ونيزك في فضاء الكون ، وصفحة سوداء في كتاب التاريخ ، وقطرات دم في رحاب الحرية ، إن الاحتلال هواء الإبادة العطن المستقر في غرفة تعذيب نازية مغلقة تكمم أنفاس الأجساد المشوهة الذبيحة المعلقة بين الآهات الحبيسة ورغبات انفلات الروح ، إن الاحتلال خيمة الشرور ومصنع البطش وخباء الباطل ومرقد الإرهاب .

مطرقة الأذى

إن الاحتلال مطرقة الأذى الكبرى تسحق رؤوس الآمنين ، وتدك عظام الهانئين ، وتحطم أجساد الساعين للعيش دون ضجيج في جغرافيا الله ، وتدوس أخلاق السماء والأرض، وتكره زهرة عباد الشمس.

يمقت الحرية

إن الاحتلال يمقت الحرية والبراءة فيلقيها بعيدا عن شوك عيونه المتوحشة، وبعيدا عن قلوب المحتلين المجوفة ونفوسهم المنحرفة ووجوههم القبيحة المسننة.

إن الاحتلال وكف (١) إنه جمرة خبيثة ومرض نقص مناعة وصديد.

يذبح الأرواح المستبشرة

إن الاحتلال يذيب الأجساد في حمض القمع الحيواني ، ويذبح الأرواح المستبشرة الباسمة المنطلقة بحد العذاب الشاخص نحو الأغوار بسكين القتل والقهر.

يغتال الحب

ان الاحتلال أيضا يقلب الإحساس بالوجود فيغتال الحب ويمرر القبلة وينسف القمر ويبعد القريب ويعظم من شأن القسوة ويطفئ لظى النفس ويحتقر العشق ويطعن القلب في مقتل ويقبر الجواب ويرفض النسيم ويطرد عبير الياسمين .

يرهب الآمال

إن الاحتلال يقفل باب النجاة فيسد منافذ الهواء ويرجم الأماني ويصعدنا الهاوية ويمنع الوقوف ويثير الانكسار ويرهب الآمال ويسقط من أيدينا فناجين القهوة ، ويمزق باقات الورد .

يزكي الموت

إن الاحتلال يرهب الحياة ، يحتقر الحياة ، يجمد الحياة ويزكي الموت بإعلاء القتل قيمة مقدسة وخلقا دينيا ومادة دراسية للأطفال وفاكهة طيبة ومجال فخر وشهوة مستحبة .

إنه يقتل عناد الأرض وشموخ الزيتون وغيوم السماء كما يسحق مضاء الذاكرة ويسقط التاريخ ويبعثر الماضي ويمقت الرجاء ويقمع الرضا والشمس و صفاء النفس .

يوتر الوعي

إن الاحتلال يوتر الوعي فيعلي من قامة الوجع ويراكم الألم الأزرق ويبعثر القلق في الوجوه ويستجلب البكاء الخانق إلى حد النشيج ويمنع صخب الحليب في النفس المتوثبة ، ويقمع لجج البحر في جغرافيا الرجاء وفي قلب الوله المدنف ويبني السدود العالية في مجرى نهر الأيام المتدفق ، ويحقن الروح بغاز الأعصاب فيمحو الرغبة والتوجه والتحرر والتأمل والخيال .

خائب مثلوم

ربما كان الاحتلال كل ذلك وربما أكثر ولكنه خائب آبق مثلوم حيث الحق واقف صامد مارد شامخ يمتشق الحقيقة سلاحه المقدس وعنفوانه الأزلي ، تحف به الملائكة من كل جانب و ترفرف حوله طيور السعد وعصافير الجنان ، إن الحق لا يجلس إلا على عرش الكفاح والنضال ويتوج بإكليل العدالة والإنصاف وصولجان الحرية وهدير المعارك وسنابك الخيل .

النجاة حيث يتعانق الرصاص والصبر

إن الاحتلال مظاهر مادية قاسية عنيفة قاهرة تحتاج الكثير من الإعداد لهزيمتها وتحقيق النصر والنجاة حيث يتعانق الرصاص والصبر و الحجارة والجهاد والقوة والعزم الوقاد ، والتصدي والصلاة والسياسة والقناة في ربط حكيم وحبل مكين ، والاحتلال في فلسطين كما كان في كل الأزمان والأوطان لا محالة إلى زوال مدحور مقبور .

يخشى عيون الأطفال

والاحتلال في غطرسته وجبروته ممزق مشتت مأزوم في أسطورة جيوش يوشع الدموي وصرخات يهوه الغارق في أكاذيبه وشوفينيته وحقده النازف إرهابا و شهوة قتل . إن الاحتلال في مظهره النفسي

والروحي مهزوم في صدور الأعداء وقلوب المحتلين وعقول مبشريه الذين يخشون إدامة النظر في عيون الأطفال أو التلصص على أحلامهم ، ويخافون دعوات الأمهات الصابرات وعزائم رجال الأصيل والفجر المبتسم ، كما يخشون كلمات الغزل و الحب تنطلق من شفاه عباد الشمس أو فتى النحل الطائر .

متحررون

ربما كان الاحتلال نير يطوق أعناقنا ورعب يرجمنا وعنت مفروض علينا وموت يداهمنا ولكننا ننتصر عليه مهما طال الأمد وكثر الجهد وقل المدد ، إننا تحت الاحتلال رغم بشاعته وجبروته وقسوته وخسته متحررون ، وفي فلسطين الوطن كلما اقتربنا من نبض الأجداد وأحلام الأطفال نحمل القناديل وعناقيد العنب وكثير من الإيمان ، نحن بالحق أبدا منتصرون.

(١) الوكف : العيب والإثم والضرر.

الصعود إلى جنين .

(١)

يصبح مستبشرا
يستنشق عبق العنفوان والطحين
يستل سيفه من غمد الأشرف
ويلقي البارودة على كتفه
والله أكبر
ويقبِّل وجه أمه ويخيط حجابا في ردائه من سيرة القسام
يستحم في بحيرة صلاح الدين
ويمسك وردة للتو قطفتها له حبيبة
ينطلق عدْواً وراء الريح
يصعد
يرسم بأصبعيه شارة الختيار
يحفر قبرا ويسيِّج قلبه بالألغام
في انتظار اللحظة الأخيرة
يثب كالأسد وينطلق كالبرق ويعبر الأيام والزيتون
من أمة الشهادة يجيء
من أمة المرمر والقلوب الذهبية

(٢)

من خلف الرقاب المحنية كدًا ولدوا

ومن مساقط المياه الثائرة صنعت أعينهم

ومن عَجَاج الأرض قدت أرواحهم

ومن وشم الريح نظرناهم يصعدون

يكتبون كلمة

يفجرون كلمة

يُقتلُون في سبيل الله والكلمة

يصحون على وقع الكلمة

ويحلمون في حيفا والكلمة

جنين

عاصمة الشرف العربي

ورمانة الفدائيين

كرامة الدنيا وعطر العذارى ومهد البريق

جنين

سِدرة العاشقين ومنزل الإقدام وسلم الثريّا

جنين

بوابة الجنة ومنزلة التائبين

إليها يصعد الثوار

ويتعلمون

(٣)

جاءوا بالأمس في يوم غضب متثاقلين متباطئين
خرجوا عنوة ، مخدوعين لاجئين
من حيفا جاءوا واستقروا في مخيم جنين
وما استقروا إلا فدائيين
سنين وسنين
في المخيم كانت الصبايا يصنعن صدرية المقاتل وجعبته
وتصنع الجدات زوّادة الأسد وزيته
وتصنع الأمهات قلب خالد وحديد يديه
وتصنع الهامات السمر معنى الرجولة والجسارة ونبذ الأنين
يصنع المخيم الأسطورة ووعي القدر
يدافع عن التاريخ العربي الجديد وحضارة الأمة
يصنع انزلاق الماضي وعيون الأطفال
بريق الثريا وصعود المستقبل

(٤)

إلام تراهم ينهدون ؟وإلام تراهم يسعون ؟
إلى قتل ودمار وإرهاب
أم إلى حرب وضرب وخراب
أم إلى كثير من أكاذيب يقولها فيهم صهاينة معتدون
إنهم العاصفة والهدير

أنهم ضحايا المجزرة منذ الأجداد
أنهم الأقمار والأطيار ونسمات العبير
إلى ليلة باردة يصبون فيها أكواب الشاي مع كثير من الضحكات
والى جلسة هادئة مع الكثير من السّمار والخراريف والحنين يسعون
إلى يوم دافئ يجوبون فيه المرج بخفة وطيب نفس ورمانة ينهدون
إلى عيش كريم بلا ألم بلا عذاب بلا قتل بلا أنفاس حارقة بلا ذكريات
المستحيل
إلى أمل يهبوه لنا ، يصعدون ولا يعودون.

*فلسطين في ١٠/٤/٢٠٠٢، اليوم التاسع للصمود الأسطوري لمخيم جنين ، اليوم التاسع على مذبحة مخيم جنين الفداء .

الهروب من الزيتون !

مرايا مخدوشة

أن الاحتلال فينا نقيصة مسكونة ، مثلبة قعيدة و نقيصة نسبية ، إنه نكوص وانتكاس و قوالب صدئة وأفكار زائفة ومرايا مخدوشة وأمجاد خلب و أمراض طينية وتقهقر.

هروب من ماء الربيع

إن الاحتلال أسر للروح الطيبة وتملص من الوقوف ، إنه هروب من المواجهة ، أو من الحقيقة أو من الاستخلاف في الأرض أو الوطن أو القدر أو الزيتون أو الحب أو ماء الربيع.

الواقفون كحلا

إن الاحتلال فينا اعتداء على مربع الروح وورود الحقيقة الواقفين كحلا في وسط الجادة الوحيدة المضاءة في الروح الطيبة الرقيقة الباسمة .

اجتياح الخبائث

إن الاحتلال فينا اجتياح الخبائث والغثاء لمربع أرواحنا فيما نسعى لتغطيته أو لتعويضه من مدد الماضي المقذوف أو حرارة الحاضر المزيف أو أوهام المقبل الموصوف .

تلف النفوس

إن الاحتلال فينا كثير حيث انبعاج القلوب وتلف النفوس ، وفي قلوب الجبناء ، و صدور اللاهين من الجيران والأصدقاء في القرب وحين إتلاف قمح العيون، وقطع شجر الزيتون وقهر الوطن بالسفر الأبدي إلى البعيد .

إدمان التراخي

في التعب والاستكانة والهروب نحو البعيد إزاحة لقيم في مربع نفوسنا واحتلال لقيم ، قيم عظيمة بأخرى وضيعة ، قيم الكرامة والأنفة والعنفوان والدعم والصمود والتجذر بقيم اللهاث الوضيع وراء الغسق والفتنة والمال الوفير والفرش الوثير ونساء الليل ، مع الذل والمهانة وإدمان التراخي والقعود ورجس الشيطان المهلك لكحل الروح .

رجم الآخرة

في احتلال النفس إعلاء لحب الدنيا ورجم للآخرة وإسقاط لآيات النصر ودعوة لعبادة شمس الرغد الذليل ، و تتبع لكوكب الدرهم وطوطم المتعة ، وشتم للمستجير والعابر والفقير .

الفرجة بديل الفعل

قد يكون ذوو الأرواح المحتلة استعاضوا بالفرجة المتراخية على شاشات الفضائيات عن جهد الفعل وعنت العطاء ، واستمرءوا إدارة الظهر للآخرين ، وأدمنوا ماء الصديد وانفراج الساقين ومساجلات السمر ولغو الحديث .

التخلص من عيون الكون

ولعلهم أدمنوا التهكم والغيبة و التندر في الكل ، و في قصص المساكين المنتكسين من الثوار أو المنتفضين هناك في السودان أو أفغانستان أو فلسطين .

وربما أحسنوا التخلص من الإحساس الإنساني بآلام المسحوقين أو الفقراء التعساء الواقفين كحلا في عيون الكون وعاصفة اللوعة وجغرافيا الرجاء .

استيطان الكذب

إن الاحتلال فينا استيطان للكذب والوأد والجفاف والخريف ، وعدوان على الفضيلة والجوى والنجوى والرحمة والسماحة وعود الريحان ، حيث السقوط أضحى من نصيب قيم كانت عظيمة! لكنها طعنت بشدة وتركت تنزف فأضحت مضحكة أو تافهة أو باهتة ؟!

قتل للأحلام

إن الاحتلال فينا قتل للأحلام والطيران والنظرة الأخرى ورجاء الخلاص ، وتعذيب في مستنقع الأنا والدناءة والزائل والموهوم .

استهتار بعذابات الأقمار

إن الاحتلال فينا فضيحة قد لا تنكشف مع قعقعة السلاح وفي عجاج المعارك وبين مناكب الحياة ، إنه خراب النفس بالابتعاد والتصحر وغرق الينابيع ، وبباب الروح بالكسل و بالتحجر والانكفاء ، وهو فرجة معيبة حيث لا نجاة قد تتسع فتنهار فينا الحصانة وتسقط السدود ، وجرح قد لا يندمل ، واستهتار بآلام وأهات وعذابات الضعفاء والأقمار في القرية الفلسطينية المقدسة ، وفي عشب الذاكرة في مخيمات الوطن ، وفي أنفاس أطفال المريول الأزرق والأكف اللينة والضحكات النادرة .

عتمة اندحار الكرامة

إن الاحتلال فينا عتمة تخفي الرذيلة وضحكات الهازئين وغزوات الماجنين واندحار الكرامة والكرم فينا ، إنه سواد لا يقبل الألوان في بياض النفس وعفاف الحقيقة ، وتعويض عن سقوط التاريخ والأجداد وقنديل الرجاء وتعب الفؤاد وابتعاد الأثر واندثار الجماعة وانحباس صوت البحر وتبلد الألم والإحساس بالآخر من المعذبين في الأرض .

قنديل وعنقود عنب

ربما ننجو و نزكي نفوسنا حيث تتصارع و تتعب وتتحرى وتكتشف وتتغير وتتصدق وتصدق وتؤمن فتعود وتقترب وتحب وتشعل قنديل الرجاء وتتلمس طريق أولئك الواقفين كحلا في عيون الكون الفلسطيني المقمر ، وتستعيد الحصانة والكرامة وقيم الجماعة وعفاف الحقيقة والتجذر وآيات النصر وتنجب الزيتون .

فنفوز في مقاومة توسع العدوان وانتشار الاحتلال غثاء في مربع أرواحنا ، إنه الجهاد الأكبر الذي لا تفلت منه سنوات العمر حيث الجهد مضاعف والصرخات مدوية وإرادة الخلاص كامنة ... قنديل وعنقود عنب .

جنين غسيل الروح

(١)

من عيون الفجر الورِع ينسلون
من خطابات النسور في أروقة السماء يبرزون
ومن صهيل الليل واكتمال القمر والعناقيد يرتقون
في جفون المعراج وبريق الأكباد وأنهار الألم وجدوا
مع هبوب الريح الواقفة يتناثرون ، يطيرون ثم يهبطون
تلتقطهم الأرض الحمراء أجنة فينبتون
صقورا في شكل زيتون أو رمانة أو عرق ميرمية .
يغسلون الروح بالصلوات والشهقات والعسجد وبالحنين
يطوفون سبعا ويسعون
ثم يرجمون آلاف الأبالسة المدرعين بالزرد والصفائح والرعب
والحصون
وينطلقون

(٢)

مع الدهر البعيد كانوا
وفي العصر الأرجواني ولدوا
ومن ماء الملائكة المقدس يتكاثرون

في عشق الذكريات هاموا
وفي عناقيد الثورة والعاصفة وقفوا
يسلّمون ويكبّرون ، يصبِحون
ويموتون .
(٣)
يتدثرون بعباءة النار والجليد
ويقبضون المسك والليالي وقروح أيادي الفلاحين
في جنين تُركّبُ الأيامُ بحد الوجع السد ، ونصل الجوارح
في جنين ترْكَبُ الأماني جواد الهوى وتكتب سفر الصعود
في جنين تصنع الصبايا أحجية القرن الواحد والعشرين
وترسم الأمهات شكل الكحل الرجوليّ ولون الشفق
وتصنعهم
فدائيين
(٤)
من دموع الكهّان ونسيج العمامات وثوب الكواعب شقوا الطريق
وفي مسالك السنا ورجفات البتلات وحليب الصدور ظهروا
في جنين لا مكان للتراجع والخوالف والمستكين
فيها يتجند الهواء والعقل والمرايا والنجيع
يتجند القلب والإيمان والخبز والتاريخ والقبضات
انقضاضا

للنسور والصواعق على المحتلين

(٥)

في جنين تُغْسَل الروحُ بمطر الشوق وكبرياء العصر
وينطلق البراق في غيمات متكاثفة من أعالي المروج
يرسل بعينيه نداء الغزو وصرخة المذبوحين
و يرسم بيديه لون النصر والأهزوجة
كبرياء الصبر والثبات وأنامل الأطفال
ويرسم بصوته الفضي
شكل البسمة
والغد
وارتفاع الجبين .

رام الله -فلسطين

٢٠٠٢/٤/١٥

مدونات على طريق بيرزيت !

اليوم الأول

في ٢٠٠١/٦/٢ أي بعد يوم من عملية الدلفين في تل أبيب التي راح ضحيتها ٢١ إسرائيليا ، وبعد يومين من وفاة الشهيد الكبير فيصل الحسيني ، كان التوتر في هذا الصباح يشتم رائحة في الجو ، واكفهرارا في الوجوه ، وتضاربا في الحركات والأقوال للناس والسياسيين ، وخفقانا في القلوب وجفافا في الحناجر مبررا إثر التهديدات الإسرائيلية الإرهابية بالرد الصاعق الماحق الذي علمنا لاحقا أنه كان سيطال بالقصف المدمر ١٢٠٠ موقع فلسطيني يتلوه احتلال لمناطق السلطة الوطنية الفلسطينية .

ما إن اقتربت بسيارتي من نهاية شارع رام الله بيرزيت أي قبل ما يقارب ٢ كيلو متر من أول رام الله حيث تنصب الحواجز وإذ بي أفاجأ بعدم وجود أحد !!! حيث لا سيارات ولا راجلين إلا أعدادا لا تتجاوز أصابع اليدين من الناس والسيارات ... هممت بالتوجه للحاجز لولا أن صرخت بي إحدى النسوة أن ارجع وإلا قتلوك ؟! فعدت لها لتقول إنهم بدءوا الإغلاق المحكم على اثر العملية وأصابوا اثنين قبل قليل حاولوا التوجه لهم ؟! .. كان الصباح بائسا ، والجو

خانقا ، والعيون شاردة ، والنفوس في حالة انشداد ، والحرارة في الجو قاتلة ، ولكن مع إيمان فلسطيني مشرق بات لا يتزعزع في جميع الظروف ؟!

لولا موقف الرئيس عرفات الذكي لكان الوضع في قمة الصعوبة والتبعثر والانهيار ، هكذا كان تعليق صاحبي في قيادة الحركة التفاوضية السياسية عندما اتصل بي مساءا ليطمئن علي ، وليطلعني على مضمون تحركات وزير الخارجية الألماني يوشكا فيشر ، وممثل الأمم المتحدة تيري لارسن .

اليوم الثاني

صدمت بمنظر طابور السيارات الصفراء (التاكسي) المتوزع على جانبي الطريق قبل الحاجز الإحتلالي وبعده ، فالمنظر مثير بالألوان وتعب الناس وقيظ الصيف وانقباض الروح ! كان الجنود يمارسون هواية أتقنوها منذ سنوات وأدمنوها ، وهي التحكم بالناس بتعجرف وعنجهية وقسوة بقصد قهرهم فهذا يسمحون له بالمرور وذاك يمنعونه ، ويسمحون لامرأة ويمنعون زوجها ، يسمحون لطفل ويمنعون أمه ، يردون عائلة على أعقابها ، يسمحون بالمرور باتجاه ويمنعونه من الاتجاه الأخر ... وهكذا.

في هذا اليوم كان المنع في حده الثاني ، حيث لا يسمح للسيارات بالمرور ويسمح للراجلين بالمرور باتجاه واحد أي من

بيرزيت إلى رام الله فقط و يمنع على القادمين من الاتجاه الآخر . وقد ذكرني هذا بقصة الضابط التركي المحال على المعاش الذي اختار بيع الماء في السوق حيث وضع إنائين وكان الشارب ان طلب الشرب من الإناء الأيمن أعطاه من الأيسر والعكس بالعكس بأسلوب متعجرف قاس استقر في شخصيته مما كان من مزايا الجيش العثماني .

اقتربت من الحاجز -الذي يسمونه بالعبرية محسوم وهي كلمة كما هو واضح ذات أصل عربي- حيث تقف ٤ سيارات دورية (حرس حدود) إسرائيلية تغلق الطريق إضافة للمكعبات الإسمنتية ، توقفت للحظات أرقب مشهد طلبة جامعة بيرزيت القادمين من رام الله باتجاه بير زيت يحدقون في عيون الجنود ويصرخون في وجوههم ويلوحون بأيديهم ، وفجأة ينطلق الرصاص الحي وقنابل الصوت ، وقنابل الدخان فوق رؤوس وبين أرجل وفي صدور طلاب وطالبات الجامعة والجماهير ... ركضت مع الراكضين باتجاه السيارات الصفراء الصاعدة إلى رام الله ...

سقط في هذا اليوم ٦ جرحى من الطلبة ... زرتهم في المستشفى أقوياء مستبشرين يترحمون على نائب رئيس جامعة بير زيت العلم والمربي إبراهيم أبو لغد الذي قضى في ٢٠٠١/٥/٢٣ ودفن في يافا بعد ٧٢ عاما من ولادته فيها .

اليوم الثالث

في هذا اليوم اتخذ المحتلون أسلوبا جديدا في قطع الطريق حيث وقفت دورية تمنع أو تتحكم بالذاهبين إلى رام الله من بير زيت ، وعلى بعد ٥٠٠ متر وقفت دورية ثانية تمنع القادمين من الاتجاه المعاكس أو تسمح لمن تريد ضمن لعبة القهر والإذلال والتحكم التي تحول الجندي إلى سادي مرير ، وفاشي متمرس ... لقد كانت هذه المسافة خالية إلا من الراجلين الرائحين والغادين ليسلموا على بعضهم البعض وعلى أبو هاني بائع البطيخ الذي بسط بضاعته على طرف الطريق تحت العريشة .

صباح الخير أبو هاني ، كيف البيع اليوم يرد على كل التحيات بالقول الحمد لله ولا بطيخة قرعة حتى الآن !؟ جلست معه لبرهة فقال : هل تحضر لي المرة القادمة أغنية شعبولا ، فقلت : ومن هو هذا ؟ قال شعبان عبد الرحيم صاحب أغنية (أنا بكره إسرائيل وأقولها لو أتسأل ... أنشاءالله أموت قتيل أو أخش المعتقل ... أحب ياسر عرفات يا ناس ده غالي عليا ... أكره إسرائيل وشيمون ويا شارون ، أحب عمرو موسى بكلامه الموزون) ضحكت من طول باله وتمسكه بالحياة والمكان الخطر لبيع البطيخ وقلت سأحاول .

تجاوزت الحاجز الأول بعد أن تفحص الجندي الاحتلالي الهوية ومررت بالأمتار ال ٥٠٠ ، ووصلت الحاجز الثاني فكان الدخان

والرصاص الحي من نصيبي حيث الالتحام مع المتظاهرين من جامعة بيرزيت الممنوعين الوصول لمقاعد الدراسة.

ولأول مرة اكتشف أن استنشاق الغاز أو الدخان شئ بغيض . كما هي بغيضة العنصرية والتطرف التي قدمت مشروعاً للكنيست لإعادة الاعتبار لحركة كهانا العنصرية الإرهابية التي خرج من رحمها الإرهابي قاتل المصلين في الحرم الإبراهيمي المسمى باروخ غولدشتاين الذي حوله المتطرفون إلى قديس، في نفس الوقت منع الفلسطينيين المشاركة في الانتخابات .

اليوم الرابع

بيتي في بيرزيت يطل على الشارع الرئيسي مباشرة ، حيث تدل حركة السيارات شدة وتواصلا التي تصلني واضحة لغرفة النوم على واحد من ثلاثة حالات الأول : أن طريق نابلس مفتوح أو مغلق لأنه أصبح يمر عبر شباك بيتي ، والثاني : أن الطريق مغلق ولكن حركة السيارات لبيرزيت والجوار باتجاه رام الله والعكس متاحة والثالث : حيث الحركة متقطعة والأصوات كل بضعة دقائق دلالة على إغلاق الطريق إلا من السيارات الصفراء التي تصل الحاجز لتقف على طريقه تنزل الركاب ليمشوا راجلين مسافة تقصر أو تطول بحسب موقع الحاجز ، وليصلوا للتاكسيات بالاتجاه الآخر .

في هذا اليوم استقليت سيارة الأجرة من باب البيت إلى الحاجز وكان ما سمي (وقف إطلاق النار) قد سار بشكل دل دلالة قاطعة على حسن الالتزام والتفهم والوحدة الوطنية الفلسطينية ... مما افترض أن يخلف تخفيفا للحصار الإسرائيلي على المدن والقرى ، ولكن لا حياة لمن تنادي ... وصلت الحاجز وسرت في درب الآلام بين نظرات الحقد والعنصرية الإسرائيلية إلى التاكسيات الرابضة في الاتجاه الآخر .

انفصلت أثناء الطريق في حالة تأمل بمقال الكاتب المغربي محمد بنيس يتأمل فلسطين قائلا : (أذكر الاسم ، أذكر ، أذكر فلسطين ، أذكره في الصباح وأنت تسلم على نفسك ، واقفا أمام مرآة ، به أبدأ الذكر التحية الأولى في الصباح ، أذكر فلسطين مستعدا لهبوط درج البيت ، مسرعاً ربما متباطئاً ، من يعلم سواك أين أنت ، أذكر فلسطين لا تهتم باسم قبله ، في الصباح صباحك ... أذكر الاسم فلسطين ، ناسيا اتجاهك ، حاملا حقيبة المدرسة، الجامعة ، دفاتر أو كراريس أذكر أولا فلسطين)

قال صديقي أبو فتحي منبهني من حالة التأمل : هل هذا الوضع الذي نراه ويراه العالم يوميا على الفضائيات يؤسس لحل سياسي قادم أم لتجدد المقاومة واستمرار الانتفاضة وبشكل أعنف ؟

اليوم الخامس

في جميع الأيام الماضية كان الاتجاه صعودا إلى رام الله أكثر يسرا من العودة التي كان يمنعها جنود الاحتلال تحت ذرائع الوضع الأمني فتارة يسمحون للنساء فقط بالمرور وتارة يمنعون ويعيدون الجميع إلى الخلف ، وتارة يسمحون للعائلات فقط؟ وتارة يسمحون للرجال فوق سن ٤٥ وهكذا ، وفي كل وقت أوامر بغيضة مختلفة ؟ وصلت الحاجز متوجها إلى بير زيت فقال الجندي المدجج بالسلاح والخوذة والجعب وواقي الرصاص على الصدر والظهر : كم عمرك؟ قلت : أربعون عاما ، قال : إرجع ، قلت : أقصد خمسين عاما ، قال : إرجع ، قلت : كم العمر المطلوب ؟ فنظر بغضب ولوح بيده بقنبلة برتقالية اللون ؟!

تجمعنا في مواجهة الحاجز الاحتلالي ووقف بعض الشبيبة ممن يتقنون العبرية يجادلونهم ويصرخون بوجوه الجنود ... إلى أن مارس الجنود هوايتهم المعهودة ... رصاص ، قنابل، دخان، ... ثم جرحى وشهيد؟

عدت إلى رام الله حيث رقدت في سرير أحد أصدقائي الذي افترش الأرض مشكورا ... ولم نستطع النوم من هجمات الناموس ومن التحليلات السياسية المتبادلة التي قادتنا إليها مقالة البرفسور

الإسرائيلي في الجامعة العبرية في القدس (باروخ كيمرلنغ) التي أورد فيها أن الشعب الفلسطيني له الحق في مقاومة الاحتلال بالقوة

اليوم السادس

عدت اليوم قاصدا بيتي في بير زيت الذي غبت عنه منذ الأمس حيث أصر جنود الاحتلال على إعادتي وحشد من المشاة بالقوة ... مشيت باتجاه الحاجز وكان المنظر (فنتازيا) عجيبة ..عروس بأبهى حلتها تجلس في سيارة مزينة بالورود ومتوقفة أمام الحاجز منذ اكثر من ٣ ساعات كما علمت ، وعدد من الكاميرات تصورها ؟! والجنود يحيطون بها وبعدد من السيارات القليلة التي تصر على الوقوف أمام الحاجز بأمل تجاوزه إلى بيرزيت .

اصطدمت بأحد أصدقائي فاعتذرت فقال : الخطأ مني فأنا أمشي نصف نائم لأن لي أياما أربعة نمت فيها على بلاط بيت أحد أقربائي في رام الله ...أقول نمت مجازا لأن الوساوس والظنون ، والألم والقهر كان يحرق جسدي ويعتصر نفسي على عائلتي هناك في القريب (البعيد) في بيرزيت ، وعلى أمي التي توفت منذ يومين في القارة المجاورة في الخليل وعلى ابنتي التي تبكي عدم قدرتها الوصول إلى رام الله لتقديم الامتحانات في مدرستها ..، فاعذرني وأردف بمرارة : قاتل الله الاحتلال ؟

حدثت نفسي كما قال سعيد أبو النحس المتشائل في قصة أميل حبيبي (١٩٢١-١٩٩٦) تعودنا فلم نعد نجد في خلع الملوك خارقا ولا في بقائهم ... ، ونحن تعودنا المقاومة والمرارة ، ونحن باقون ، كما بقي حبيبي في حيفا ؟

فلسطين -بيرزيت في ٢٠٠١/٨/٩

يحاصرون خوفهم والدبابات .

تسقط عليك الدبابات كحلم مرعب ، كحوائط واقفة .

تطلع من الظلمة ، وتدنو منك كما القدر المحتوم لا يسألك ولا يأبه لك أو يراجعك .

تقترب منك دون إذن ، تهدر في رأسك دون توقف ، تصوب فوهتها الفولاذية الممدودة نحو عينيك . نحو رقبتك ، نحو صدرك ، نحو رأسك دون اكتراث أو مشاعر ...وأنت صابر صامت .

تحاصرك العتمة وجنازير الدبابات في الربع الأخير من المدينة ، وأنت تنظر ذات اليمين فلا ترى أي بريق في محيط القومية المعدم ، وتنظر ذات الشمال حيث رجال الأمة بين لاهٍ وراجٍ ومتوسل أو باكٍ ومخنوق .

يُسَدُّ الشارع بالحديد والنار ، وتحيط بك الدبابات من الجهات الأربع حيث لا مفر من مواجهة برودة الصفيح وحمم القذائف ، قمر وحيد أنت في وجه سيل الحمم والنيازك الملتهبة.

في خوف طاغٍ ينكمش المقاوم ، يَلْتَم حول نفسه ، يتكوّر ، يتمنى أن يتحول إلى حجر صغير ، حصوة ، ضمن مكونات رصيف الشارع المظلم ، فلا تسحقه الدبابات ...تمر فوقه دون ألم أو وجل .

أنفاس لاهثة وزفرات متقطعة ، صدر يرتفع وينخفض ، أعضاء مرتجفة ، وعيون متراقصة ، وأرجل متباعدة ويدين تقبضان على عنق البندقية وخصرها في وضع الاستعداد وبتصميم عنيد .

نظرات صقرية تمسح المكان ، وآلاف الأفكار تنحشر في مدى الخيط المتصل من العين اليمنى المفتوحة إلى شعيرة البندقية باتجاه الدبابات المتكاثفة كما الضباب ...الله اكبر وينفجر فيه صدر الصمت يطلق وجبة من الرصاص تتلوها وجبة ، ليتوقف الوحش الحديدي عن الهدير ، فيتحول الفدائيون الملثمون بالإرادة والأنين من بناية إلى أخرى ويعودون أُسُوداً .

يحملون معهم خوفهم الصامت وجرأتهم ، وَجَلَهم وشجاعتهم ، قُبلات الصِبا و شجارات الشباب ، تجولهم وانقضاضهم ، صلواتهم ومشاعرهم الرقيقة ، حياتهم واستشهادهم .

في رام الله كان الفدائيون يحاصرون خوفهم والدبابات ، ويتقدمون في عمق الوجل والجنازير ، ويطلقون الصرخة وإعلان الحياة ، مؤمنين يطاردون الأشباح والوحش الوهمي.... وينتصرون .

* رام الله في ١٤/٣/٢٠٠٢ اليوم الأخير للاحتلال .

دعني أتنفس البنفسج !

لا تمد يدك
اتركني أنزف
على زاوية الخوف
وقار السكون
ورعب الدبابات
وفضاء الأمس
ومرارة الخذلان
اتركني ولا تمد يدك
ودعني أنزف الخطر
أنني أتنفس البنفسج
فالرائحة ملأت سمعي
وهددت لزوجة دمي

وتجاوزت زمن المزيج
زمن الريش والعولمة
زمن الانفكاك القومي
والاندحار
والذل
اتركني أصارع
دعني أنزف
وانزع قيودي من خيط عباءتك
واقفل على عقلي عذاب الانسحاب منك
اتركني أصارع
فلم يعد في المحيط أنت
ودعني أنزفك
ولا تقل أنني استسلم
فأنا لم أفقد إيماني
ولم أفقد لون بشرتي
ولم أفقد كهرماني
ولم أفقد قبري
أنشد فرحي
إني أنشد فرحي الصافي
بينما تنشد أنت المزيج

تنشد الرخاء والذِلة

الحرير وابتلاع الشتيمة

التنعم واستقرار الاحتلال

اللذة واغتصاب وجهك

الخضراء والانسحاق

البريق وعقم الصلات

لست أخي

دعني أنزف

فلست في العروبة أخي

وما أخالك كنت ظهيري

وحيدا أتمدد على رصيف الانتقال

دونك يا ضعفي

بغيابك وعيونك المغمضة

تركتني لأنزف

لا بأس

لقد اكتشفت سعادة الانتقال

من عشب الواقع المحنط إلى الحلكة

واكتشفت قوة الإبحار

في قلب الفراشة الزاحفة

وعين البلبل
و دم الشهيد
وحديقة الأضواء
ومرايا الأشياء
ورغاء البعير
وإباء الفقير
وعناد السوسن
والحب الحامض
وبسمة يعرب

دعني أتنفس البنفسج

دعني أتنفس البنفسج
و أتركني أنزفك
فيدك الراجفة مغلولة
وفؤادك مقفل
وروحك بالية
لست أخشى شيئا
فالموت صاحبي
كما هطول القمر
ونحيب البنفسج

وعجين الأرض

وانتشار العبير

فاتركني ولا تعد.

الكاتب : بكر محمود أبو بكر

-مواليد فلسطين ، تخرج في العام ١٩٨٥ بكالوريوس هندسة مدنية.
-شارك في عدة حلقات ودورات فكرية وإدارية ونقابية وسياسية .
-عقد عشرات الدورات لكوادر تنظيمية وجاليات في مختلف التخصصات الإنسانية في فلسطين وخارجها.
-رئيس الاتحاد العام لطلبة فلسطين في الكويت ١٩٨٤-١٩٨٦ .
-عضو لجنة إقليم (قيادة) حركة (فتح) بالكويت ١٩٨٧-١٩٩١ .
-عضو المجلس الإداري للاتحاد العام لطلبة فلسطين منذ ١٩٩٠ .
-عضو المجلس الوطني الفلسطيني .
-مسؤول الدراسات والدورات في مكتب التعبئة والتنظيم لحركة (فتح) ، تونس ١٩٩١-١٩٩٦ ، وعضو مكتب التعبئة والتنظيم في الوطن منذ العام ٢٠٠٢ .
-نائب المفوض السياسي العام .
- مسؤول مفوضية التدريب والتأهيل (مدرسة الكوادر) في التوجيه السياسي والوطني في فلسطين منذ ١٩٩٦ .
-له العديد من الدراسات والأبحاث والكتابات المنشورة في الصحف والمعتمدة للدورات المختلفة .

-مفكر وكاتب في عدد من الصحف مثل : الحياة الجديدة ، فلسطين اليوم ، وطني ، الجريدة (الإلكترونية) ، الانتفاضة ، الكرامة.

-صدر له الكتب التالية :

<u>الدراسات والكتابات :</u>

- مفاهيم لا بد منها – عناة للطباعة والنشر – رام الله ١٩٩٧م .
- تحقيق الفوز في قيادة الحملة الانتخابية – gups– ١٩٩٩ .
- مبادئ المسؤولية التنظيمية .– عناة للطباعة والنشر– ١٩٩٨
- كيف تقيم معسكراً ؟ التوجيه السياسي، ١٩٩٧ .
- التفكير في حركة (حماس)– مدرسة الكوادر–١٩٩٨
- حركة (فتح) بؤرة الإبداع والتميز –مدرسة الكوادر–١٩٩٨.
- حركة (فتح) والتنظيم الذي نريد ، دار عناة ، ٢٠٠٣ .

<u>النتاجات الأدبية :</u>

* لم لا ! (مجموعة قصصية) .–دار الزاهرة–٢٠٠٠

*في الزمن الواقع بإمكانكم أن تطيروا (مجموعة قصصية) ، دار الشروق ، ٢٠٠٣

* برق مقيم (نصوص نثرية) –اتحاد الكتاب الفلسطينيين– القدس ، ٢٠٠٤ .

المحتـــــويات

الجزء الأول

١- شهداء الركعة الأخيرة في القدس
٢- منك السماح يا شيخ أبوعاصي
٣- عزيز التنح القمر الشهيد
٤- بكاء ينتظر
٥- رجل الأرجوان الشيخ طايل
٦- أم المحمدين
٧- فيصل الحسيني شهيد القدس
٨- صعود الشجن
٩- تيسير خطاب ويقين الشهادة
١٠- زيت الجبهة وجسد أبوعلي
١١- لو رأيتموه والريق
١٢- عاهدنا
١٣- الفهد المتوثب يطرح السلام
١٤- ذوبان القمر

١٥- وجع مقيم وجع نام

الجزء الثاني

١- الرجل المحيط

٢- زهرة الليمون

٣- غزالة تطلع من كوكب الانتصار

٤- الرجل المسرع في مسار البرق

٥- انسان المطر

٦- رسالة إلى صديقي المحلق

٧- ياسر عرفات النجم في سماء الحرية

٨- غدك أفضل

٩- ترانيم الفحل الغائب

١٠- لماذا تبتعد

١١- النمر يقفز

الجزء الثالث

١- أجبني هل تسمعني ؟

٢- لين على لين .

٣- أين أنت

٤- انشداد

٥- ارجع أبيض كما الندف
٦- القمر الأزرق
٧- فقد النسيم
٨- كيف تغرب
٩- الفراشة القلقة
١٠- لا تكف عن العقوق
١١- لبست ثوب الكوكب الغافي
١٢- هدوء
١٣- اتكاءات

الجزء الرابع

١- شعرك والبحر
٢- الاحتلال وعباد الشمس
٣- الصعود إلى جنين
٤- الهروب من الزيتون
٥- جنين غسيل الروح
٦- مدونات على طريق بيرزيت
٧- يحاصرون خوفهم والدبابات
٨- دعني أتنفس البنفسج .